خلافة أبو بكر الصديق

مأمون غريب



خلافة

أبو بكر الصديق

تأليف
مأمون غريب

مركز الكتاب للنشر

مقدمة

كم تبهرنى شخصية الصدّيق . .

هذا الإنسان المتواضع فى جلال . . القوى بتقواه، الحازم فى ورعه . . صاحب الوجه الأبيض، والقوام النحيل، الذى يتحول إلى إعصار قوى كاسح عندما تؤول الخلافة إليه، ويرى بعض الناس قد ارتدت عن الإسلام ، وبعضهم الآخر يفرّط فى فرض من فروض الله وهو الزكاة، ويرى على أطراف شبه الجزيرة من يدعى النبوة ويتبعه بعض المارقين . . ووسط هذه الفتنة الطاغية، وهذه الطامات التى تزحف محاولة أن تنال من دعوة الإسلام . . فاذا به يتصدى لكل هذه الفتن، وفى نفس الوقت يعد جيشه لمحاربة الروم!!

ياالجلال الإرادة الإنسانية عندما يكون دافعها الإيمان القوى متمثلاً فى هذا الخليفة الحازم الشجاع . . الذى قضى على الفتنة وأعاد للإسلام صولته وجلاله فى القلوب والعقول.

لقد تولى الخلافة عامين ونحو ثلاثة شهور، صنع فيهم ما يشبه المعجزات! .

فلن ينسى له الإسلام ما قدمت يداه فى حفظ الوحدة الإسلامية، والكيان الإسلامى.

ولن ينسى له التاريخ جمعه للقرآن الكريم دستور الإسلام وحفظه من الضياع، ومع كل ما قدم للإسلام من خدمات كان يخشى الله فى الناس، حتى أنه كان يتمنى ألا يكون قد آلت إليه الخلافة، فلطالما قال للناس:

« أما بعد : فإنى وليت هذا الأمر وأنا له كاره، ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه !! ألا وإنكم إن كلفتمونى بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد أكرمه الله بالوحى، وعصمه به، ألا إنما أنا بشر ولست بخير منكم فراعونى، فاذا رأيتمونى استقمت فاتبعونى، وإن رأيتمونى زغت فقومونى، وأن لى شيطاناً يعترينى، فاذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى ».

ولكن الصدّيق رغم حدّته التى كانت تعتريه عندما يغضب، ونصحه للناس أن يبتعدوا عنه أثناء غضبه، كان شديد الحلم .. شديد الحياء .. شديد الحب لله ولرسوله وللمؤمنين، فهو لم ينشر العدل والحب والتسامح بين الناس فقط، بل هو نفسه كان مثالاً للعدل والحب والتسامح .. وكيف لا وقد كان شديد الإيمان، شديد الخوف من اللّه، يخشى أن يظلم أحداً، أو يتقاعص عن نصرة مظلوم .. فقد كان شعاره الذى التزم به منذ أول يوم تولى فيه الخلافة :

« أما بعد . . أيها الناس : إنى قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فان أحسنت فأعينونى، وإن أخطأت فقومونى، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمّهم البلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم».

هذا هو الصديق الذى كان من آخر دعائه:

« اللهم اجعل خير زمانى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاك».

وما أعظم شمائل الصديق.

* * *

أبو بكر .. قبل الخلافة

كم كان أبو بكر الصديق عظيماً . .

عظيماً فى إيمانه . . عظيماً فى إنسانيته . . عظيماً فى مواقفه . . لقد رجع من أحد زياراته التجارية إلى الشام فسمع الناس فى مكة يتحدثون عن صديقه محمد بن عبدالله الذى يدعو إلى دين جديد، ينبذ عبادة الأصنام، ويُسفّه عبّاد هذه الأصنام، ويدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد . . خالق كل شئ . . ومبدع كل شئ . . وهو على كل شئ قدير . . وما كاد يسمع ذلك حتى أسرع إلى صديقه يسأله عما يتهامس به الناس، وخرج من عنده مؤمناً بالله ورسوله، وصمم أن يكون هو وما يملك من أموال فى سبيل الدعوة وأسلم بإسلامه الكثير من أصدقائه أمثال عثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف . . كما اشترى عدداً من العبيد الذين أسلموا وأعتقهم لوجه الله . . ومن بين هؤلاء العبيد الذين اعتقهم بلال بن رباح، الذى كان يعذبه سيده أمية بن خلف حتى يترك إيمانه بالله فأبى .

وعندما حرره الصديق من رق العبودية بخمس أوقيات من الذهب، قال له أمية بن خلف :

« لو أبيتم إلا أوقية واحدة لأخذته » .

فقال له الصديق:

« لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته».

هذا المشهد الخالد الذى يوضح فى ميزان الصديق يدل إلى عمق إيمان الصديق، وحبه لإخوانه فى الإسلام، وتحرير رقابهم، لأن قيمة الإنسان فى الإسلام لا توزن باللون والجاه والثراء، ولكن توزن بالتقوى، وكان بلال تقياً ورعاً، لم يُجْد معه التعذيب ولا الإرهاب، بل كان يساق إلى الرمال الساخنة عارى الجسد، والحجر على صدره، وهو يجُر وسط لهيب الصحراء ولظاها ولا يردد إلا كلمة: أحد .. أحد.

لقد حرره الصديق، واستمع إلى بلال وهو يقول له:

– إن كنت اشتريتنى لنفسك فامسكنى، وإن كنت إنما اشتريتنى لله عز وجل فدعنى لعمل الله عز وجل.

فقال له أبو بكر:

« إنما اشتريتك لله عز وجل».

وهذا المشهد صوره الفاروق عمر بن الخطاب بكلمته الرائعة:

– أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا (يقصد بلالاً).

ومنذ لازم الصديق آخر رسل الله عليه الصلاة والسلام منذ إسلامه .. وهو شديد التعلق بالرسول .. شديد الولاء والحب

له.. فهو يعرف طهارته ونقاءه وصدقه .. حتى أنه عندما أسرى بالرسول الكريم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السموات .. وهمس الناس بهذا الحديث عن الإسراء والمعراج وارتد ضعاف الإيمان عن دينهم، وأسرع البعض إلى أبى بكر يحدثونه عن حديث الرسول عن الإسراء، وهم يظنون أنهم يوقعون الشك فى قلب الصديق .. فما كان من الصديق إلا أن سأل الناس:

- أقال ذلك؟

- قالوا : نعم.

- قال : لئن قال ذلك لقد صدق.

وقال لهم أيضاً عندما قالوا له : أتصدق أنه ذهب إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح؟

قال لهم:

نعم أنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك .. فى خبر السماء!

وعندما ذهب إلى المسجد وسمع الرسول يصف للناس المسجد الأقصى الذى رأه الصديق أثناء رحلاته إلى فلسطين .. قام أبو بكر وقبّل الرسول بين عينيه وقال: «أشهد أنك رسول الله».

وأطلق عليه الرسول لقب الصدّيق عندما قال له:

«وأنت يا أبا بكر الصدّيق».

هذا هو الصدّيق صاحب الرسول .. وأول من أسلم من الرجال، ورفيقه فى الهجرة إلى المدينة، حتى أن الرواة يَروون أنه بعد أن نجح الرسول وصاحبه من الخروج من مكة إلى دار هجرته .. رغم الحصار التى فرضته مكة على بيت الرسول الكريم .. أن أهل مكة سمعوا أحد الجن وهو يتحدث عن نجاح هجرة الرسول يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه

رفيقين حَلاً خيمتى أمِّ مَعبْدِ

هما نـزلا بالبر ثم تَروَّحـا

وقد فاز من أمسى رفيق محمد

لِيَهْنِ بنى كعب مكان فتاتهم

ومقعدها للمؤمنين بمرصد

وهذه القصيدة عارضها حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة بقصيدة مطلعها :

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم

وتُدَّسى من يسرى إليه ويغتدى

هذا هو الصديق الذى يعرف فضله ومكانته أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى أننا نرى الإمام علىٍّ كرم الله وجهه يسأل الناس :

« ناشدتكم الله أى الرجلين خير : مؤمن آل فرعون . . أم أبو بكر؟» .

وعندما صمت الناس . . قال الإمام :

« والله ليوم من أبى بكر خير من مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه ، وهذا بذل لله نفسه ودمه» .

والمتابع لسيرة حياة الصديق يعرف كم كان الرجل قريباً إلى قلب رسول الله ، لقوة إيمانه وصدقه وتقواه ، حتى أن الرسول الكريم وهو يستشير أصحابه فى الأسرى بعد غزوة بدر ، مال الرسول إلى رأى الصديق .

وكان المسلمون قد أسروا سبعين من الأسرى .

فكان من رأى الصديق :

«يا نبى الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، فانى أرى أن نأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً» .

وكان رأى عمر قتل الأسرى .

وكان من رأى عبدالله بن رواحة إحراقهم .

واستمع الرسول إلى أقوال أصحابه ثم قال :

« إن الله ليُلن قلوب رجال فيه ، حتى تكون ألين من اللَّين ،

ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال:

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]

ومثلك يا عمر مثل نوح قال:

﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]

ومثلك كمثل موسى قال:

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]

وأخذ الرسول برأى أبى بكر .. غير أن الوحى جاء بعد ذلك مؤيداً لرأى الفاروق:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]

كم كان الصديق عظيماً .. وإنساناً .. ومحباً لله ورسوله ..

كان حليماً شديد الحلم . . قوياً فى الحق شديد القوة . . رائعاً فى عفوه.

انظر إليه . . عندما طعن الرسول الكريم فى شرفه (فى حديث الإفك) حيث اتهمت عائشة رضى الله عنها، وطعن الصديق وهو يسمع هذا الافتراء على ابنته . . وظل المنافقون يرددون حديث الإفك هذا رغم أن النبى قال للناس:

« أيها الناس . . ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى، ويقولون عليهن غير الحق، والله ما علمت عليهن إلا خيراً، ويقولون ذلك عن رجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى».

وحديث الإفك يتلخص فى أنه فى أحد غزوات الرسول أخذ معه زوجته عائشة . . وفى طريق العودة كان قد انفرط عقدها . . وأخذت تجمعه، وعندما عادت كان ركب الرسول قد رحل وقد ظنوها فى هودجها . . رأى شاب اسمه (صفوان بن المعطّل) وعرفها فحملها على بعيره إلى المدينة، وكانت فرصة للمنافقين وعلى رأسهم عبدالله بن أُبى بن سلول رأس المنافقين فى المدينة، فقد كان يحقد على الرسول ودخل الإسلام نفاقاً لأنه كان يطمع أن يصبح ملكاً على المدينة قبل هجرة الرسول إليها، ولكن عندما هاجر الرسول إلى

المدينة وبايعه أهلها، ضاع منه المنصب فأخذ يحقد على الإسلام ونبى الإسلام.

واتخذ من حادثة الإفك هذه وسيلة للتشهير بأم المؤمنين عائشة، بغية بث الفتنة . . فقد سأل ابن أُبى من حوله عندما رأى عائشة.

– من هذه ؟

– قالوا : عائشة.

قال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها حتى يدخل بها المدينة.

وسارت هذه الشائعة الكاذبة . . حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام غضب غضباً شديداً . . وقال لعائشة :

« يا عائشة، لقد بلغنى عنك ما بلغنى، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت قد أخطأت فاستغفرى الله، وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه تاب الله عليه» .

وبكت عائشة كثيراً، وهى تسمع هذه الأكاذيب التى يرددها المنافقون عنها . . ونزل الوحى ببراءة عائشة . . حتى أن عائشة كانت تقول :

– الشكر لله، والحمد لله، أنزل براءتى من السماء.

فقد نزل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) ﴾

[النور : ١١-١٧]

وقد طلب ابن هذا المنافق عبدالله بن أبي وكان مسلماً تقياً ورعاً من الرسول أن يقتل والده لافترائه على أم المؤمنين كذباً، ولكن الرسول قال له :

« بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا ».

لقد رفض الرسول الكريم أن يقتل الولد أباه . . وبعدها احتقر المؤمنون صنيع هذ المنافق، ولم يعد يكبرونه كما كان قبل ذلك، وقد لاحظ الرسول العظيم ذلك فقال لعمر بن الخطاب.

- « كيف ترى الآن يا عمر؟ ».

«أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته».

يريد الرسول الكريم أنه لو قتله لتعصب له قومه فى تلك اللحظة تعصباً وارتعدت غيظاً . . وها هى اليوم قد عرفته على حقيقته.

فقال له ابن الخطاب:

قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى.

والعجيب أنه كان هناك رجل قريب من أبى بكر، وكان أبو بكر يعطف عليه، وينفق عليه، وهذا الرجل اسمه مسّطح، هذا الرجل خاض فى حديث الإفك هذا، ولما علم الصديق بذلك قال:

- لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً.

ونزل قوله تعالى:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ [النور: ٢٢]

فقال أبو بكر: والله إنى لأحب أن يغفر الله لى . . وعاد إلى الرجل ما كان يعطيه له من نفقة!.

* * *

ومن أكثر مواقف الصديق الرائعة.

ولنقف مثلاً عندما أراد النبى عليه الصلاة والسلام أن يحج إلى بيت الله الحرام فى العام السادس من الهجرة .. وكان الرسول قد رأى فى منامه أنه دخل مع أصحابه المسجد الحرام .. وأراد أن يزور البيت الحرام، وفرح الصحابة بذلك، وتوجه الرسول والصحابة إلى البيت الحرام بملابس الإحرام، إلا أن مكة صدتهم عن دخول مكة، وأبت عليهم زيارة بيت الله الحرام فى عامهم هذا، رغم أن النبى وأصحابه لم يأتوا لقتال، وليس معهم إلا السلاح اليسير، وفى نفس الوقت كانوا فى الأشهر الحرم الذى لا قتال فيها.

وعندما نزل الرسول الكريم عند الحديبية على مسيرة يوم واحد من مكة، بركت ناقته القصواء، وأبت النهوض، وعندما قال البعض.

- خَلأت القصواء.

فقال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام:

« ما خلأت، وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسها حابسُ الفيل عن مكة، والذى نفسى بيدى لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطَّة يسألوننى فيها صلة الرَّحم، وتعظيم حرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

كان الرسول يريد السلام .. وكان يأمل أن تثوب مكة إلى رشدها ولا تمنع المسلمين من زيارة بيت الله الحرام، وكان يريد أن تمتد بينه

وبين أهل مكة الحوار وإقناعهم بأنه ما جاء لقتالهم، ولكن مكة أصمت أذنيها، وأغلقت عينيها، وآثرت عدم التفكير، فقد ركبها إثم الكبرياء والغطرسة، وأرسلت إليه وفوداً للتفاوض، وأرسل لهم الرسول عليه الصلاة السلام عثمان بن عفان، وانتشرت إشاعة بمقتل عثمان رضى الله عنه، فتأهب الرسول لمحاربة قريش، وكانت بيعة الرضوان، أو الشجرة، والذى أنزل الله سبحانه وتعالى فيها قوله:

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح: ١٨]

وعندما علمت قريش بذلك خشيت مغبّة القتال، وأرسلت (سهيل بن عمرو) لحقن الدماء، وإقامة صلح بين مكة والمسلمين، وكان الاتفاق على أن يرجع المسلمون عن دخول مكة فى هذا العام، وأن يعودوا إليها فى العام القادم، فتحل لهم مكة ثلاثة أيام يؤدون فيها العمرة، وأن تعقد بين الطرفين هدنة لمدة عامين، وأن من أراد من قبائل العرب أن يدخل فى حلف محمد دخل فيه، ومن أراد الدخول فى حلف قريش دخل فيه، وأن من جاء محمداً من أهل مكة بدون أذن وليه ردّه إليهم، ومن جاء إلى قريش من أصحاب محمد لم يردّوه إليه.

وقبل الرسول هذه الشروط، ورأى فيها بعض المسلمين الكثير من

الإجحاف للمسلمين، وتساءل البعض هل يعودون إلى المدينة دون زيارة بيت الله الحرام، وكان عمر بن الخطاب شديد الثورة والغضب على هذا الاتفاق . . أو ما سمى بصلح الحديبية .

وذهب عمر إلى أبى بكر الصديق وسأله .

– أليس محمداً رسول الله؟

قال أبو بكر: بلى .

– قال عمر : أولسنا على الحق؟

قال أبو بكر: بلى .

– قال عمر : أليسوا بالمشركين؟

قال أبو بكر: بلى .

– قال عمر: فعلام نعطى الدنيَّة فى ديننا؟

وبكل الإيمان العميق رد الصديق:

– أيها الرجل، إنه رسول الله، ولن يعصى ربَّه فاستمسك بغرزة حتى تموت، فوالله أنه لَعلَى الحق .

لقد أوشك الأمر أن يكون فتنة .

وخاصة أن سَهيلاً طلب أن تكتب باسمك اللهم، بدلاً من بسم الله الرحمن الرحيم، وقد وافق الرسول على ذلك .

وعندما طلب النبى من علىّ بن أبى طالب أن يكتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» قال سهيل:

- لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك!!.

وجد المسلمون فى ذلك تعنتاً من المشركين، ما كان ينبغى أن يقبله الرسول، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان بعيد النظر، وقد أظهرت الأيام فيما بعد مدى عمق نظر الرسول عليه الصلاة والسلام وأن نفس البنود التى اشتكى منها المسلمون، هى التى اشتكى منها أهل مكة فيما بعد.

لقد أخذت الحمية عمر بن الخطاب، وذهب إلى الرسول غاضباً وسأله.

- يا رسول الله ألست برسول الله؟

- بلى.

- ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

- بلى.

- فعلام نعطى الدنيَّة فى ديننا إذن؟

- أنا عبدالله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعنى.

ولكن عمر توجه إلى الصديق وسأله.

- يا أبا بكر . . ألم يذكر لنا رسول الله أننا داخلون مكة . . طائفين بالبيت . . محلقين ومقصرين؟!.

أجاب الصديق:

- ثكلتك أمك يا ابن الخطاب . . أذَكَر لنا أننا ندخله هذا العام؟ إنه رسول الله، فاستمسك بغرزه حتى تموت.

إن الصديق شديد الإيمان بأن الرسول لا ينطق عن الهوى، وأنه يتصرَّف بوحى من ربه، بينما عمر مع إيمانه الشديد بالإسلام إلا أنه يُعمل عقله ويريد أن يحكّم المنطق.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس وأمرهم بأن ينحروا، ويحلقوا، ويحلّوا، ولكن لم يستجب المسلمون فى أول الامر بعد أن أعماهم الغضب، فقالت له زوجته أم سلمة:

- هون عليك يا رسول الله، فإنه قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك وعليهم من المشقة من أمر الصلح، ورجوعهم بغير حجٍّ، وأرى أن تخرج ولا تكلم أحد منهم، وتنحر بَدَنَتَكَ، وتحلق رأسك، فان صنعت ذلك وشاهدوك، قاموا فصنعوا مثلك.

وما كاد المسلمون يرون الرسول يفعل ذلك حتى قاموا ففعلوا مثله.

وأقام الرسول فى الحديبية حوالى عشرين يوماً ورجع الى المدينة، وفى الطريق إلى المدينة نزلت على الرسول سورة الفتح.

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفتح : ١-٣]

وسأل عمر النبى عليه الصلاة والسلام:

- أوَ فتح هو يا رسول الله؟

قال عليه الصلاة والسلام.

« نعم، والذى نفسى بيدى إنه لفتح» .

وبالروعة الصدّيق، وهو يعبّر عن أحداث الحديبية فيما بعد بقوله:

« ما كان فتح مكة فى الإسلام أعظم بركة من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين النبى وربّه، والعباد فى طبعهم يعجلون، والله الذى يدبر لا يعجل لعجلة العباد، حتى تبلغ الأمور ما أراد.

لقد نظرت إلى (سهيل بن عمرو) فى حجة الوداع قائماً عند المَنْحَر يقرِّب إلى رسول الله بدنَهُ، ورسول الله ينحرها بيده . . ودعا رسول الله الحلاق فحلق رأسه، فكنت أنظر إلى سهيل يلتقط من شعر رسول الله، ويضعه على عينيه.

وأخذت أذكر إباءه أن يكتب يوم الحديبية بسم الله الرحمن

الرحيم، وإياه أن يكتب (محمد رسول الله) فحمدت الله الذى هداه للإسلام، وأنقذه من الهلكة».

* * *

لقد كان أبو بكر قريباً جداً من قلب رسول الله . . لعمق إيمانه، وورعه وتقواه، حتى أن كُتب السيرة تروى هذه القصة التى تدل على مكانة الصديق.

فقد كان الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بين أصحابه يوماً يعظهم، فإذا (أبو بكر) يقبل من بعيد، وكان متغير الوجه، فلما رأى الرسول وجه أبو بكر وما اعتراه من تغير قال لأصحابه:

- أما صاحبكم فقد غامر (أى خاصم).

وأقبل الصديق، وقال للرسول بعد أن ألقى عليه وعلى أصحابه السلام:

- يا رسول الله، إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شئ فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لى، فأبى علىّ، فأقبلت إليك.

فقال النبى صلى الله عليه وسلم:

- يغفر الله لك يا أبا بكر (قالها ثلاثاً).

وجاء عمر، فجعل وجه النبى يتغير على عمر، وخاف أبو بكر من غضب الرسول فقال للنبى عليه الصلاة والسلام:

- يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم، والله أنا كنت أظلم.

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام:

- إن الله بعثنى إليكم، فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق، وآسانى بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لى صاحبى، فهل أنتم تاركو لى صاحبى.

ويقول الإمام البخارى: فما أوذى أبو بكر بعدها.

هذا هو الصدّيق .. وهذه بعض مواقفه .. قبل الهجرة وبعدها.. حيث كانت أمواله مُسخرة لخدمة الإسلام، وحيث كان هو خير صاحب لأعظم رسل السماء .. وسوف تظهر بعد ذلك موهبته فى إدارة دفّة الحكم عندما تولى الخلافة، وكيف أصبح هذا الإنسان الضعيف الجسد، القوى الإيمان، عملاقاً يدافع عن الإسلام فى كل الجبهات .. على مستوى الجبهة الداخلية حيث قضى على الردة، ومانعى الزكاة، وعلى المستوى الخارجى عندما قرر مجابهة الفرس والروم .. أقوى قوى العصر ليرفع منارة الإسلام .. وينشر لواءه إلى أماكن لم تكن تخطر على البال .. ويبدأ الزحف الإسلامى الكاسح ليغزو القلوب والعقول، وينشر أضواء الحضارة الإسلامية فى كل مكان .. وتكون دعوته للجهاد فى سبيل نشر كلمة الإسلام هى بوابة انطلاق النور خارج شبه الجزيرة العربية، والتى أتم فتوحاته الفاروق عمر بن الخطاب، ومن بعده الخليفة الثالث عثمان بن عفان.. ولا أحد كان يدرى ما سوف يكون عليه الزحف الإسلامى لولا قيام الفتنة الكبرى فى عهد عثمان رضى الله

عنه، وما نتج عنها من حرب أهلية فى عهد الإمام علىّ كرم الله وجهه!!.

ولهذا صدق عليه قول الرسول الكريم:

- « ما لأحد عندنا يد وقد كافأناه إلا أبا بكر فان له عندنا يد يكافئه الله بها يوم القيامة . . وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر».

وقال عنه أيضاً :

- «ما طلعت شمس ولا غربت على أحد أفضل من أبى بكر إلا أن يكون نبى».

* * *


وفاة الرسول
عليه الصلاة والسلام

يوم حزين

كان الحزن يخيم على مدينة رسول الله .

والأسى يملأ القلوب والأفئدة .

فالنبى الكريم مريض .

وخير من سارت على الأرض خطاه راقد فى فراش المرض .. وهو الذى ملأ المدينة بالحركة والحيوية والحياة .

كما جاشت النفوس بالذكريات .

فقد هاجر النبى من مكة إلى المدينة بعد ثلاثة عشر عاماً ينشر فيها الإسلام فلا يجد من المشركين إلا صدود وشراسة فى محاربة ما جاء به الحق من الله .

واستقبلته المدينة استقبالاً حماسياً عظيماً .. وبه أصبح للمدينة شأن آخر فى بلاد العرب كلها ..

فقد قضى على الأحقاد بها بعد أن آخى بين المهاجرين والأنصار.. وبعد أن ألف بين قبائل الأوس والخزرج .. وأخرج اليهود منها بعد أن غدروا بالعهود والمواثيق .. وبهم خاض معارك الإسلام الكبرى .. إلى أن انتشر الإسلام فى كل بقعة من الجزيرة العربية ..

وجاءت الوفود من كل مكان تبايع النبى وتعتنق الإسلام.

وهبت على الجزيرة العربية نسائم عذبة رقيقة..

لقد عرفت القلوب الحب والتراحم والتسامح..

وأصبحت للبلاد لأول مرة وحدة روحية تجمع شملهم .. بل أصبحت هذه القوة التى كانت قابعة فى الجزيرة العربية على هامش الحياة قوة مؤثرة لدفع عجلة الحياة..

فالرسول قد أرسل إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام .. بما فى ذلك إمبراطور الفرس، وامبراطور الروم أقوى قوى العالم فى ذلك الزمان..

ثم سارع النبى عليه الصلاة والسلام حتى يمتد نور الإسلام إلى كل أرجاء الدنيا يعد العدة للفتح الكبير .. فقد أعطى إشارة البدء إلى أسامة بن زيد للتوجه بجيشه إلى الشام حيث يجابه قوى الرومان .. ويثأر لمقتل والده زيد بن حارثه ومن معه من شهداء مؤته.

الصورة بالرسول مختلفة تماماً قبل الرسالة.

فقد تجمع العرب بعد فرقة.

وأصبح لهم وزن بعد أن كان لا قيمة لهم إلا من خلال التفاخر القبلى .. والصراعات القبلية..

أى أن الإسلام جعل منهم خير أمة أخرجت للناس.

فى المدينة كان الناس يشاهدون النبى وهو ينطلق بهم فى حروب مقدسة دفاعاً عن الإسلام .. ثم يعود بينهم كواحد منهم .. يواسى الفقير .. ويساند الضعيف .. ويلاطف الأطفال .. ويمزح معهم ولا يقول إلا صدقاً . .

لقد ملأ الحياة فى المدينة بالحياة .. وفرضت شخصيته العظيمة فى المدينة كل شئ . .

كيف يتحمل الناس غياب النبى؟

بل كيف يتحمل الناس أن يتركهم ويودع الحياة أعظم من عرفته الحياة . .

رغم أن الموت حق . .

وأنه لا خلود لأحد سوى الله . .

ولكن الناس لا تريد أن تفجع فى أحب الناس إلى الله . .

ولا يريدون أن يروا نبيهم العظيم فى فراش المرض . .

وأبعد شئ عن الخيال أن يتصور أحدهم انتقاله إلى رحاب الله .

أما النبى فقد ألهمه الله المعرفة .. إنه يعرف أنه سيودع الدنيا قريباً . . وأن الله خيره بين الدنيا والخلد فيها وبين الآخرة .. فاختار ما عند الله والآخرة .

فقد أتم الرسالة .. وأدى الأمانة .. ونزلت آخر آيات القرآن الكريم وكأنها تنعى رسول الله ﷺ.

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣]

وقد شعر أبو بكر الصديق بهذا فبكى.

وكانت كل الدلائل تشير إلى اقتراب رحيل النبى عليه الصلاة والسلام.

إنه يزور المقابر فى نفس الليلة التى مرض فيها .. ليستغفر لموتى البقيع .. ومعه مولاه (أبو مويهبة) فيقول له:

- « يا أبا مويهبة أنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة .. خيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة فاخترت لقاء ربى والجنة».

- بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فيقول له النبى عليه الصلاة والسلام:

- «لا والله يا أبا مويهبة. لقد اخترت لقاء ربى والجنة».

ورجع النبى إلى منزله ليشكو من الصداع .. ثم يبدأ المرض .. والمسلمون قلقون على النبى أشد ما يكون القلق .. يعتصر الحزن نفوسهم .. ويحز الألم فى أعماقهم .. خاصة بعد أن أمر أبا بكر أن يصلى بالناس.

وكانت الصورة العامة فى أشد الحاجة إلى وجود النبى . .

فهناك جيش أسامة الذى يعسكر فى الجرف وقد أمره النبى عليه الصلاة والسلام بالتوجه إلى الشام لمواجهة الروم .

وهناك الفتن التى بدأت تظهر فى الجزيرة من الذين يدعون النبوة .

و . . أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم . .

وكلما اشتد مرض النبى كلما زادات أحزان المسلمين . . حتى أن النبى تحامل على نفسه، ودخل إلى المسجد، وخطب الناس وهو يغالب المرض، وقال لهم :

« أيها الناس بلغنى أنكم تخافون موت نبيكم . هل خلد نبى قبلى فيمن بعث الله فأخلد فيكم، ألا وأنى لاحق بربى وأنكم لاحقون به، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصى بالمهاجرين فيما بينهم بخير فان الله يقول» :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر : ١ - ٣]

وإن الأمور تجرى باذن الله، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله . . فان الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، فهل عسيتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم .

أوصياكم بالأنصار خير فانهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم . . أن تحسنوا إليهم . .

ألم يشاطروكم فى الثمار؟

ألم يوسعوا لكم الدار ؟

ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟

ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم .

ألا ولا تستأثروا عليهم . فأنى فرطكم وأنتم لاحقون بى .

ألا إن موعدكم الحوض .

ألا فمن أحب أن يرده على غداً، فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى .

أيها الناس إن الذنوب تغير النعم فإذا بر الناس برتهم أئمتهم، وإذ فجر الناس عقوا أئمتهم» .

ويعود النبى إلى بيت عائشة والمرض قد زاد عليه . . ويقص عليه عمه العباس رؤيا رآها، أن القمر قد رفع من السماء فيقول له النبى :

«إنه ابن أخيك . . إنه الموت أذن» .

لقد فرح الناس فرحاً شديداً عندما وجدوا النبى يصلى معهم صلاة الفجر خلف أبى بكر . . ظنوا أنه الشفاء من المرض . . حتى

انشرح قلب أبى بكر .. وذهب بعد صلاة الفجر إلى داره بالسنح بالقرب من المدينة.

كان النبى مبتسماً .. مشرق الوجه .. جميل المحيا .. ولكنها كانت صحوة الموت..

فقد انتقلت روحه إلى بارئها فى نفس اليوم..

وارتفعت من بيت النبى أصوات النحيب..

وبكت زوجاته ما طاب لهن البكاء ..

كما بكتْ ابنته الوحيدة فاطمة بكاءاً شديداً وهى تتذكر كيف أنه منذ لحظات قال لها وهو يشاهد الدموع تملأ عينيها وتقول لوالدها العظيم:

- يا كرب أبتاه ..

ويرد عليها :

- «لا كرب على أبيك بعد اليوم».

وكان النبى عليه الصلاة والسلام قد أخبرها أنها أول أهل بيته لحاقاً به.

وها هو النبى وقد فارقت روحه الطاهرة الجسد الطاهر..

وها هى مدينة الرسول تسبح فى أحزانها العميقة ..

إن المدينة يخيم عليها صمت حزين كئيب.

والخبر ينتشر فى أنحاء المدينة.

ويأتى عمر بن الخطاب فيسمع أن الرسول قد أدى رسالته وذهب إلى جوار الله . . فتهزه الفجيعة . . فيتوعد الناس وهو يقول لهم:

إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد مات، وأنه والله ما مات . . ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، والله ليرجعن رسول الله فيقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات.

ويأتى أبو بكر الصديق من داره البعيدة فى (السنح) . . ويدخل على النبى الكريم ويقبله ويقول:

- طبت حياً وميتاً يا رسول الله.

ويخرج إلى الناس . .

هنا يظهر معدن الصديق . .

ذلك الرجل الناحل . .

المعروق الوجه . .

والذى كان صديقاً للنبى فى طفولته وشبابه . . ورفيقه فى الغار . . وأقرب الناس إلى صدر النبى.

أنه يبدأ دوره التاريخى الخطير . . والذى يظهر من خلاله قوة شخصيته . . التى استمدها من تقاليد الإسلام . .

إنه يرى القلوب التى هزتها الفجيعة، ويسمع عمر وهو يهدد المسلمين . . ويتقدم داخل المسجد ثم يخطب الناس:

« أيها الناس : من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فان الله حتى لا يموت».

ثم يقرأ قوله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران : ١٤٤]

وكانت كلمات الصديق الرصينة الهادئة سبباً فى أن يتحمل الناس الفجيعة فى صبر المؤمنين، وأن يفيق ابن الخطاب إلى الحقيقة فيلوذ فى صمت حزين عميق.

وينشغل عليٌ بن أبى طالب وآل بيت الرسول بوفاته عليه الصلاة والسلام.

وإذا برجل يأتى إلى أبى بكر يخبره أن الأنصار مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة يتدارسون الأمر .. ومن يكون له الحكم بعد الرسول..

وتسير الأحداث بسرعة مذهلة ..

ويتلبد الجو بالغيوم ..

فالأنصار يريدون أن يكون الخليفة منهم ..

وكأنى بالصديق فى تلك الساعات العصيبة يتذكر رحلة عمره كله..

والأحزان تنوء بكاهله ..

يتذكر طفولته وصداقته للنبى منذ هذه الطفولة .. بل إنه ذهب معه عندما أراد محمد أن يذهب مع عمه أبو طالب إلى الشام .. حيث نصحه الرهبان بأن يعود بابن أخيه إلى مكة خوف بطش اليهود.. ونزل أبو طالب على رغبة هذا الراهب .. رغم عدم اعتقاده بما يقول.. ولكن خشى أن يصيب ابن أخيه مكروه فيقول الناس عنه أنه لم يسمع كلام الراهب .. فيبعث مع ابن أخيه الحبيب من يعود به إلى مكة ،ويرجع معه أبو بكر الذى فضل العودة معه .. ثم كان صديق صباه وشبابه .. وأول من آمن به من الرجال .. وصدقه فى كل شئ .. واضعاً تلك العبارة نصب عينه.

- إن كان قد قال ذلك فقد صدق.

وها هو ذا يرى أحب الناس إلى قلبه يغادر دنيانا التى ملأها بالأمل والرجاء .. ونقلها من عار الجاهلية إلى أنوار الإسلام.

أى أحزان تلك التى تعتصر قلب الصديق وهو يرى رسول الله يودع الدنيا وهو الذى كان فى صحبته دائماً.

ومع ذلك فإن الواجب عليه الآن أن يحافظ على وحدة المسلمين.

وأن عليه أن يذهب إلى السقيفة ليرياً أى صدع يمكن أن يتعرض له الإسلام.

إن الأمر صعب للغاية . .

فالنبى ما زال على فراشه . .

ومع ذلك فقد سمع أن الأنصار مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة، وأن سعد بن عبادة يريد أن يتولى أمور المسلمين.

الأنصار يريدون الخلافة لهم . .

والمهاجرون يرون أنهم الأولى . . فهم أهل النبى . . وهم الذين هاجروا معه تاركين متاع الحياة الدنيا من أجل الرسالة.

والخلاف يمكن أن يتحول إلى انقسام خطير فى صفوف المسلمين، ومع ذلك . . فقد ذهب أبو بكر ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة ابن الجراح . . لحسم هذا الموقف.

بينما كان ابن عمه علىٌّ بن أبى طالب فى بيت النبى . . فقد أثقلته الهموم، ولكنه صابر لقضاء الله . . إنه يقول للنبى فى تلك اللحظات الأليمة:

لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء . .

لولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء

الشئون، ولكن الداء مماطل، والكمد مخالف، ولكنه ما لا يملك رده، ولا يستطاع دفعه.

بأبى أنت وأمى. اذكرنا عند ربك وأجعلنا من بالك.

وإذا كان علىٌّ بن أبى طالب قد كتم أحزانه .. وأخذ يحاول التماسك .. فان زوجته فاطمة بنت النبى عليه الصلاة والسلام والتى كانت تحب والدها العظيم حباً جماً .. لم تستطع أن تدارى أحزانها العظيمة .. فصاحت..

أبتاه .. أبتاه ..

يا أبتاه ..

أجاب رباً دعاه ..

يا أبتاه ..

جنة الفردوس مأواه ..

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ..

ولقد ظلت فاطمة حزينة على فراق والدها العظيم طوال أيامها القصيرة الى قضتها بعد النبى .. فقد كانت أول أهل النبى لحاقاً بالرسول الكريم كما وعدها .. وظلت حزينة طوال النصف عام الذى عاشته بعد رحيل النبى عليه الصلاة والسلام.

* * *


يوم السقيفة

أحداث السقيفة

علم عمر بن الخطاب أن الأنصار قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة ليولوا الأمر بعد الرسول لسعد بن عبادة .. وكان سعد مريضاً.. خفيض الصوت بسبب مرضه .. فكان يخطب الناس، ابنه قيس يردد حديث والده بصوت عال حتى يسمعه الجميع.

وكان من رأى سعد أن يتولى الأنصار الأمر بعد النبى.

فهم الذين ناصروه وآزروه..

وهم الذين رفعوا راية الإسلام عالية بخوضهم المعارك تلو المعارك بقيادة النبى عليه الصلاة والسلام.

إن سعد بن عبادة يحاول أن يقنع الأنصار بذلك .. فأخذ يخطب فيهم قائلاً:

إن لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب..

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث فى قومه بضعة عشر سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأوثان .. فما آمن من قومه إلا قليل..

والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ولا يعزوا دينه ولا

يدفعوا عنه عداء، حتى أراد الله بكم خير الفضيلة، وساند إليكم الكرامة، وخصكم بدينه، ورزقكم الإيمان به وبرسوله، والإعزاز لدينه، والجهاد لأعدائه، فكنتم أشد الناس على من تخلف عنه منكم. وأثقله على عروة من غيركم، حتى استقاموا لأمة الله طوعاً وكرهاً، وأعطى البعيد القادة صاعراً داحضاً، حتى أنجز الله لنبيكم الوعد، ودانت لأسيافكم العرب، ثم توفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير العين، فشدوا أيديكم بهذا الأمر فإنكم أحق الناس وأولاهم به.

علم عمر باجتماع السقيفة من عويم بن ساعدة ومعن بن عدى فأخذ أبو بكر الصديق وذهب إليهما ومعهما أبو عبيدة بن الجراح..

أنهم فى هذه الظروف البالغة القسوة يحاولون أن يمنعوا أى خلاف فى صفوف المسلمين..

ويريدون فى نفس الوقت حسم الموقف فى صالح الإسلام..

فأسوأ شئ أن يعود العرب إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام من تنافر وتباغض وأسوأ من ذلك أن يدب الخلاف بينهم، وجسد النبى الطاهر ما زال فى فراشه.. كما أن الأمر يبدو فى غاية الخطورة ونحن نعرف أن هناك من ادعوا النبوة.. والنبى عليه الصلاة والسلام ترك الأمر بعده شورى..

فهو لم يوص بالخلافة لأحد من بعده..

وإن كان ترشيحه لأن يصلى الصديق بالناس قد ساندت أبو بكر كثيراً في أحقيته لخلافة النبى..

ولو كان النبى عليه الصلاة والسلام قد رشح أحداً للخلافة لما كان هناك من يجرؤ على مخالفة أمر الرسول .. ولسارت الأمور سيراً طبيعياً .. ولما قامت هناك مشكلة تهدد أمن المسلمين وتفرق آراءهم..

ولكن لحكمة يعلمها الله ترك النبى الأمر شورى بعده..

ومن هنا اشتد الجدل بين الأنصار والمهاجرين .. وأيهما أحق بخلافة النبى.

هل يئول الأمر للمهاجرين الذين تركوا أرضهم وديارهم وأموالهم في سبيل الدين .. وهم أهل وعشيرة النبى.

أم يئول الأمر إلى الأنصار وهم الذين ناصروا النبى وآزروه حتى اشتد ساعد الإسلام وقوى .. ودخل الناس بهم دين الله، وفتحوا مكة نفسها وتم نور الله.

وكأنى بالصديق فى تلك اللحظات الرهيبة والحاسمة تمتلئ نفسه بمختلف المشاعر ..

يعز عليه أن يترك الجسد الطاهر على فراشه ليحسم هذا الأمر من أمور المسلمين..

هو الذى عاش مع النبى أجمل أيام حياته..

وهو الذى ما عرف صديقاً يحبه كل هذا الحب، ويؤثره كل هذا الإيثار من رسول الله..

لقد دافع عن النبى .. وكادت روحه أن تزهق دفاعاً عن محمد يوم تعرض له أبو جهل وسفهاء قريش، وحمى النبى بجسده وهو يصيح بهم:

« أتقتلون رجلاً يقول ربى الله ».

إن هذا الرجل الرقيق .. الطيب القلب .. فى أعماقه طاقة لا توصف من الإيمان..

إيمان قوى كاسح، جعله وهو الواهن الجسد.. لا يطيق عندما هاجر إلى المدينة أن يسمع أحد أحبار اليهود .. وكان اسمه فنحاس أن يسخر من المسلمين وسط جماعة من اليهود .. حتى طلب منه أبو بكر أن يسلم ويؤمن بما يدعوه محمد عليه الصلاة والسلام .. وإذا بفنحاس يزداد صلفاً وغروراً وجهلاً .. فاذا به يقول للصديق:

والله يا أبا بكر ما بنا من الله من فقر وإنه إلينا الفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى، ولو كان غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنياً ما أعطينا».

وكان فنحاس بهذا يشير ساخراً إلى قوله سبحانه :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾

[البقرة : ٢٤٥]

كان هذا الحبر اليهودى يتحدث عن الإسلام وهو يظن أنه لا يجرؤ أحد على معارضته .

فالرسول قد عقد معاهدة بمقتضاها يصبح لليهود حرية العيش فى سلام .. يمارسون طقوس دينهم دون أن يتدخل المسلمون فى شئونهم .

ولكن المفاجأة .. هى أن الصديق بما يحمله من إيمان قوى .. تحول إلى إنسان آخر .. فاذا به يضرب اليهودى على وجهه ضرباً مبرحاً .. انتقاماً لحق الله .. وهو يقول له :

– والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله .

ما .. أكثر الذكريات التى كانت برأس الصديق وهو يسير نحو السقيفة .. ومنتهى أمله أن يجنب الله المسلمين الفتنة والخلاف .

ذهب الصديق .. فوجد الأنصار حول سعد .. وهمَّ عمر أن يتكلم إلا أن أبا بكر طلب منه التريث حتى يتحدث هو .. وأصغى الناس إليه .. وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

– إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه وشهيداً على أمته ليعبدوا

الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ولهم نافعة، وإنما هى حجر منحوت وخشب مبخور..

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

وقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [يونس: ٣].

فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواساة له، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم أياهم، وكل الناس مخالف زار عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم، وشنف الناس لهم وإجماعهم عليهم، فهم أول من عبد الله فى الأرض، وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم.

وأنتم يا معشر الأنصار من ينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام .. رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تفتاتون بمشورة ولا نقضى دونكم الأمور».

وابتدأ النقاش فى ذلك اليوم الحزين من وفاة النبى فى الثانى عشر من ربيع الأول فى السنة الحادية عشر للهجرة (٣ يونيو ٦٣٢م).

فترى الحباب بن المنذر بن الجموح، يقترح أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير، ويعتقد أنه بذلك يفك الاشتباك بين المهاجرين والأنصار، ولكن عمر يرفض ذلك ويقول:

هيهات .. لا يجتمع سيفان في غمد، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم.

ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة، والسلطان المبين، من ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل، أو متجانف لإثم، أو متورط في هلكة؟.

ورد عليه الحباب بن المنذر .. طالباً من الناس ألا يسمعوا قول عمر .. وأنهم أولى بالخلافة، وهدد المهاجرين بطردهم من المدينة، فما كان من عمر وهو يرى الفتنة تبرز فاتحة فاهها الموحش إلا أن يقول للحباب:

« إذن يقتلك الله ».

وحاول أبو عبيدة بن الجراح أن يهدئ من ثورة الأنصار فقال لهم:

يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير.

كانت هذه صورة من صور يوم السقيفة.

الرسول ما زال جسده الطاهر على فراشه..

والناس هناك مختلفون . .

أيهم تكون له الخلافة . .

أنها لعبة السياسية فى كل العصور.

ولكن ما كان ينبغى أن تكون الصورة هكذا . . ونبى الله ما زال فى بيته .. ولم يدفن بعد . . ما كان ينبغى أن يسرع الأنصار إلى محاولة نزع الخلافة . . وهم الذين آزروا النبى . . وبايعوه. وحاربوا معه معارك الإسلام الكبرى . . ففتحوا بذلك بابا كان من الصعب غلقه أمام عودة الروح القبلية.

روح التفاخر القبلى . . والبحث عن أمجاد قبلية . . لفظها الإسلام . . وأغلق نوافذها . . وجعل أحب الناس إلى الله هو أقربهم إلى الله . . وأكثرهم خشية منه وتقوى.

فلا مكان للتفاخر بالألقاب .

ولا عودة لدعاوى الجاهلية ومباذلها . .

ووسط هذه الظروف القاسية . . البالغة القسوة على النفوس . . خرج صوت عاقل من الأنصار . . من الخزرج . . هو صوت بشير ابن مسعد أبى النعمان بن بشير . . هذا الصوت وضع حداً للشقاق الذى كان سيحدث بين المهاجرين والأنصار . . قال بشير :

يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد

المشركين، وسابقة فى هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا، وطاعة نبينا، والكدح لأنفسنا، فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغى به من الدنيا عرضاً، فان الله ولى المنة علينا بذلك، ألا إن محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبداً، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم».

وأياً كان السبب فى موقف بشير .. وهل كان ذلك نكاية فى سعد ابن عبادة أم لا؟ .. فان موقفه هذا جعل الأوس تتخوف أن يئول الأمر إلى الخزرج .. فتعود من جديد ما كان بينهم قبل الإسلام من عداوة وخصام .. فأقبل الناس يبايعون أبا بكر ..

وكان أبو بكر قد طلب من الناس أن تبايع عمر، أو أبا عبيدة .. غير أن عمر رفض ذلك كما رفض أبو عبيدة أيضاً ..

وقال عمر للناس :

« أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

رضيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاك لدنيانا؟».

وبايع الصحابيان الجليلان عمر وأبو عبيدة أبا بكر ..

وتقدم الناس بعدها مبايعين ..

ثم أقبل الناس من كل مكان . . يبايعون الصديق . .

حدث هذا فى الوقت الذى كان فيه علىٌّ بن أبى طالب والعباس عم النبى بجوار النبى فى بيته يجهزونه .

وهنا نقف مع التاريخ وقفة بشأن الإمام علىٍّ . .

فهناك من يقول أن علياً لم يبايع أبو بكر ، وأنه كان يريد الخلافة لنفسه .

فهو ابن عم الرسول ، وزوج ابنته . .

وأبو الحسن والحسين سبطا النبى عليه الصلاة والسلام .

ومواقفه مشهودة ، وبلاؤه وجهاده فى سبيل الله لا أحد ينكره . .

وإذا كان أبو بكر فى السقيفة جعل مبرراً أن تكون الخلافة فى قريش لقرابتها من رسول الله . .

فمن باب أولى أن يكون علىٌّ أولى بالخلافة لأنه أقرب المقربين إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . .و . . ما أكثر الروايات حول موقف علىٍّ من الخلافة .

فقد قيل أن علياً كان مطمئناً تماماً لأن تئول الخلافة إليه ، والمبايعة له ولن ينازعه فيها أحد . . بدليل أن العباس عم النبى قال له عندما حضر أبو سفيان لمبايعة علىٍّ بالخلافة :

أبسط يديك أبايعك ويبايعك هذا الشيخ ، فأنا إن بايعتك لم

يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلفَ عليك أحد من قريش، وإذا بايعتك قريش لا يختلف عليك أحد من العرب.

ولكن عليٌّ بن أبي طالب رد على عمه قائلاً:

لنا بجهاز رسول الله شغل، وهذا الأمر فليس نخشى عليه . . ورد الإمام يعني أنه كان يعتقد أن أحداً لا يستطيع أن ينازعه الخلافة.

وأن هذه بديهية لا تحتاج إلى جدل، إلى أن سمع المكبرين. . وعرف ما حدث بالسقيفة . . فلم يشأ إفساد إجماع الناس، ولم يشأ أن يحدث ما يسبب خلافاً بين المسلمين . . كل ذلك والرسول ما زال في بيته . . لم يدفن بعد !.

وما أكثر ما قيل عن مبايعة الإمام لأبي بكر بعد ذلك. .

فمن قائل أن عمر أخذه عنوة ليبايع أبا بكر . . وهذا شئ مستبعد عقلياً . . فليس عليٌّ وله ماله من الشخصية والمكانة ليبايع بهذه الطريقة.

وما كان أبو بكر ليرضى أن تكون مبايعة عليٌّ له بهذه الصورة .

ولكن الأقرب إلى المنطق أن علياً بايع أبا بكر . . رغم إيمانه بأحقيته بالخلافة، حرصاً على عدم تفريق كلمة المسلمين ، والدليل على ذلك أن علياً لم يسمع كلام أبي سفيان عندما طلب منه أن

يبايعه وينصره على أبى بكر . . فكان رد الإمام علياً أنه ليس فى حاجة إلى خَيْلِه . . فطالما غش الإسلام.

لقد فطن الإمام بذكائه إلى محاولة أبى سفيان النيل من الإسلام، وخلق فتنة بين صفوف المؤمنين، فهو الذى قال عندما قدم المدينة، وعلم مبايعة الصديق.

- إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم!.

فعلىٌ أغلق أبواب الفتنة.

وإن كان الكثير من الصحابة قالوا أن البيعة لو تمت لعلىٌ باعتباره من أهل بيت الرسول لما كان هناك خلاف فى السقيفة أو غيرها حوله.

ولا أصدق من كلمة الرثاء التى ألقاها علىٌ عندما توفيت الزهراء، وهو يودعها إلى مثواها الأخير، ويشكو حزنه إلى رسول الله:

السلام عليكم يا رسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك . .

لقد استرجعت الوديعة

وأخذت الرهينة . .

أما حزنى فسرمد . .

وأما ليلى فمسهد .. إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم، وستنبئك ابنتك بتضافر (أمتك) على هضمها .. فأحفها السؤال واستخبرها المقال .. هذا ولم يطل بك العهد .. ولم يخل منك الذكر.

وإذا كان قد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن الخلافة قد جاءت فلتة .. فلعله يقصد أن ظروفها عندما اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة .. وكيف تطورت كما رأينا إلى مبايعة أبى بكر .. إنها لو سارت الأمور على غير ما سارت به لاتخذت الخلافة طريقاً آخر يعلم الله وحده كيف يكون.

لقد بايع الناس أبا بكر فى السقيفة إذن البيعة الخاصة وتلقى بعد ذلك أبو بكر فى المسجد البيعة العامة.

وهنا حلت أصعب مشكلة بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام وهى مشكلة الخلافة.

لأن النبى لم يوص بطريقة الحكم بعده .. وكذلك القرآن الكريم، ولو كان هناك نص فى القرآن الكريم بطريقة الخلافة، أو وصية من النبى لاحترمها الجميع .. ولما ظهر أى خلاف بين المسلمين عقب وفاة النبى .. ولما تجرأ سعد بن عبادة أو غيره أن يطلب الخلافة لنفسه .. ولكن لحكمه لا يعلمها إلا الله ترك النبى الأمر شورى بين المسلمين.

ونحن نعرف أن مشكلة الخلافة قد أخذت ثلاثة أشكال بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام . . وتفرقت فيها الآراء حول ثلاثة آراء:

فهناك رأى يرى أن الخلافة ليست بالضرورة أن تكون فى قريش . . لأن النبى عليه الصلاة والسلام قال:

« اسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشى ذو زبيبة» .

بينما رأى البعض الآخر وهم المهاجرون أنها لا بد أن تكون لقريش لقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو بكر «الأئمة من قريش» .

وهناك الرأى الذى قال أن الخلافة يجب أن تكون فى بيت النبى عليه الصلاة والسلام . . لأن النبى قال وهو فى طريقه إلى غزوة تبوك لعلىّ بن أبى طالب:

« أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبوة بعدى» .

وهذه الآراء الثلاثة ظلت تتصارع فيما بعد، وأثرت تأثيراً كبيراً فى مجرى التاريخ الإسلامى لقرون طويلة وظهرت الشيع والفرق الإسلامية المختلفة .

حدث إذن ما حدث عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

واختلف الناس أين يدفن النبى . .

اقترح بعضهم أن يدفن فى البقيع .

واقترح البعض الآخر أن يدفن عند إبراهيم الخليل .

وحسم أبو بكر الموقف بأن يدفن فى مكانه لأنه سمع النبى عليه الصلاة والسلام يقول :

« لا يدفن نبى إلا حيث قبض » .

وألحدوا للنبى لحداً .

ودخل القبر العباس وعلىٌ والفضل بن العباس . .

لقد وضع النبى العظيم فى أكفانه ثم وضع على جانب القبر قبل أن يدفن وصف الناس صفوفاً . . وفى الصف الأولى وقف أبوبكر وقال :

اللهم إنا نشهد أنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ ما أنزل إليه ونصح لأمته . .

وجاهد فى سبيلك حتى أعز الله دينه وتمت كلمته . .

فاجعلنا إلهنا ممن اتبع القول الذى أنزل معه ، واجمع بيننا وبينه حتى تعرفه بنا ، وتعرفنا به ، فإنه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً . .

لا نبتغى بالإيمان به بدلاً ، ولا نشترى به ثمناً أبداً . .

وكان المسلمون يرددون عقب كل مقطع بكلمة آمين .

لقد دفن النبى عليه الصلاة والسلام .. ورحل أعظم من عرفته الحياة إلى الرفيق الأعلى .

وترك من السيرة العطرة والسلوك والقيم الأخلاقية كل ما هو جدير بالحياة كما ترك ما لو تمسك به المسلمون لا يضلون أبداً: كتاب الله وسنه رسوله .

رحل الرسول، وبايع الناس أبا بكر البيعة العامة، وأصبح أبو بكر الصديق هو الخليفة الأول لرسول الله، والذى خطب الناس، بادئاً حكمه بهذه الكلمات الرائعة .. الصادقة بعد أن حمد الله وأثنى عليه ..

أيها الناس إن الله الجليل الكريم العليم الحكيم الرحيم الحليم بعث محمداً بالحق، وأنتم معشر العرب كما قد علمتم من الضلالة والفرقة، ألف بين قلوبكم، ونصركم به، وأيدكم ، ومكن لكم دينكم، وأورثكم سيرته الراشدة المهدية، فعليكم بحسن الهدى ولزوم الطاعة .

وكذا استخلف الله عليكم خليفة ليجمع به ألفتكم، ويقيم به كلمتكم، فأعينونى على ذلك بخير، ولم أكن لا باسطاً يداً ولا لساناً على من لا يستحل ذلك إن شاء الله .

وأيم الله ما حرصت عليها ليلاً ولا نهاراً .

ولا سألتها الله قط فى سر ولا علانية .

ولقد قلدت أمراً عظيماً ما لى به طاقة ولا يد، ولوددت أنى وجدت أقوى الناس عليه مكانى، فأطيعونى ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم.

واستطرد قائلاً:

اعلموا أيها الناس أنى لم أجعل لهذا المكان أن أكون خيركم ولوددت أن بعضكم كفانيه، ولئن أخذتمونى بما كان الله ينعم به رسوله من الوحى ما كان ذلك، وما أنا إلا كأحدكم، فان رأيتمونى قد استقمت فاتبعونى، وإن زغت فقومونى.

واعلموا أن لى شيطاناً يعترينى أحياناً، فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى، لا أوثر بأشعاركم وأبشاركم.

وبدأت خلافة الصديق.

* * *


أطياف الذكريات

أطياف الماضي

ها هو ذا أبو بكر الصديق أصبح الخليفة الأول لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم .. إنه يتقلد هذا المنصب الخطير .. بل هو منصب في غاية الخطورة، وفي ظروف في غاية الخطورة أيضاً..

فالمكان الذي يشغله جد كبير..

والفراغ الذي تركه رسول الله لا يمكن أبداً أن يعوضه إنسان مهما كانت عظمته وعبقريته وقوة شخصيته.

فشتان ما بين النبي عليه الصلاة والسلام، وبين أية شخصية أخرى.

النبي يأتيه وحي السماء..

ولا ينطق عن الهوى..

كما أن له من الشخصية والمهابة والجلال ما لم يتيسر لشخصية أخرى عرفها الوجود.

ومن هنا فقد كان المركز الجديد الذي احتله أبو بكر دقيقاً للغاية..

كما أنه جاء إلى الخلافة والسماء ملبدة بغيوم الفتن.

فما أكثر من ادعوا النبوة..

وما أكثر الذين وجدوا فى الإسلام قيداً على حرياتهم وما ورثوه من عادات قبلية .. وهم ما زالوا قريبى العهد بالإسلام .. كما أن من هؤلاء من حاولوا أن يظلوا على الإسلام بشرط ألا يدفعوا الزكاة.

كل ذلك حدث فى الوقت الذى ما زال جيش الرسول الذى قد أعده لغزو الروم بقيادة أسامة بن زيد ما زال معسكراً فى الجرف.

فى هذه الظروف الصعبة والقاسية يظهر المعدن الحقيقى لأبى بكر..

هذا الرجل الناحل العود .. الخفيف العارضين .. المقرون الوجه .. الغائر العينين.

كيف يتصرف أمام هول هذه المشاكل فى سنه تلك التى قاربت الستين من العمر..

شيخ جليل مهيب .. رقيق .. يمتلئ قلبه حباً وعطفاً وحناناً على الناس.. كيف يواجه تلك المشكلات السياسية الخطيرة التى لو كانت فى عصر كعصرنا لاحتاجت إلى عقول ألكترونية لفك طلاسمها.

كأنى بالصديق فى تلك الساعات الحاسمة من التاريخ .. يتذكر شريط الذكريات..

وقد أصبح مسئولاً عن الإسلام من التفكك..

ومسئولاً على القضاء على الفتن . .

ومسئولاً على أن يحقق أمل رسول الله في انتشار الإسلام في كل بقعة من بقاع العالم .. لأنه الدين الخاتم لكل شعوب الدنيا .

يخيل إلى أنه تذكر رحلة عمره مع الرسول . .

يوم كان صديق صباه . .

ويوم ذهب معه إلى الشام عندما ذهب النبي وكان عمره اثنى عشر عاماً وابو بكر أصغر منه بحوالى عامين .. وقابل الراهب بحيرا محمداً .. وعرف أنه النبي المنتظر .. وطلب من عمه أن يعود بالصبي إلى أم القرى .

يومها أعاده عمه إلى مكة . . ورافقه في رحلة العودة أبو بكر . . وما كان أبو طالب يؤمن بأن هناك خبراً من السماء يمكن أن يأتى لأحد . .

وجاءت رسالة السماء إلى النبي . .

وكان أبو بكر أول من آمن من الرجال . .

وصدق النبي في كل ما أتى به . .

وكان شعاره . . « إن كان قد قال فقد صدق» .

وصاحبه في رحلة الهجرة . .

وكان ثاني اثنين إذ هما في الغار . .

وصاحبه فى غزواته وجهاده . .

وكان أقرب الناس إلى قلب رسول الله . . حتى قال فيه عليه الصلاة والسلام :

« لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً . . ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده ».

وهل يمكن أن ينسى أحد دور الصديق فى الذود عن المسلمين بماله ونفوذه . . حتى إذا ما زاد بطش قريش، أراد الهجرة كإخوانه من المسلمين . . وذهب إلى النبى يستأذنه فى ذلك فقال له النبى الكريم:

«لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً».

وعرف الصديق أنه زميل النبى فى رحلة الهجرة . .

وكم كانت الذكريات رائعة . . عندما خرج النبى فى الجزء الأخير من الليل . . وقد غشى من جاءوا يتآمرون عليه النعاس، وذهب إلى بيت الصديق الذى كان ينتظره، وذهبا إلى غار ثور للاختباء به . .

وكم جاشت بنفسه الذكريات وهو يتذكر أهل مكة وقد وقفوا أمام الغار . . فيتصبب جبين أبى بكر عرقاً وهو يقول للنبى:

أنه لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا.

ويجيب النبى العظيم:

« لا تحزن إن الله معنا».

ويقومان بتلك الرحلة الخطرة، حتى وصلا إلى يثرب. . وحمل الصديق معه خمسة آلاف درهم .. وهناك فى المدينة كان أقرب الناس إلى قلب رسول الله.

وعاش الصديق فى المدينة بعد أن آخى النبى بينه وبين خارجة بن زيد .. وعاش معه فى (السنح) . . وهى ضاحية من ضواحى المدينة ولوفاء الصديق لأخيه خارجة . . تزوج ابنته (حبيبة) التى أنجبت له ابنته أم كلثوم.

وعندما هاجرت زوجته الأولى (أم رومان) مع ابنتها عائشة أم المؤمنين سكنوا بدار أخرى، وكان يتردد عليهم الصديق.

وإذا كان النبى قد أقام أول دولة للمسلمين قام بتأسيسها عقب الهجرة فى المدينة. فقد كان أبو بكر أحد مستشاريه المقربين.

و .. ما أكثر الصور المشرفة التى تطرحها ذكريات الصديق مع آخر رسل السماء. .

ولكنه اليوم بعد أن أصبح خليفة للمسلمين يرى أمامه الطريق صعباً وشاقاً. . والسماء ملبدة بالسحب .. ولكن العظمة التى بدت من الصديق .. من هذا الرجل الناحل العود .. تعطينا فكرة عن الإيمان العميق، وكيف يصنع المعجزات. . إن إيمان الصديق جعله يلوى عنق التاريخ . . ويغير مجراه . . بل يغير خريطة العالم كله.

فماذا كان سيحدث لو لم يحارب أبو بكر فى كل الجبهات؟

وماذا كان سيحدث لو استمع أبو بكر لأقرب الناس إليه ومنهم عمر بن الخطاب نفسه الذى نصحه ألا يحارب مانعى الزكاة طالما أقروا بالإسلام .. ولكن الصديق صاح فى وجهه صيحته التى حفظها لنا التاريخ:

- أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ؟

وماذ كان سيحدث لو أنه استمع إلى بعض الآراء التى نادت بأن يظل جيش أسامة حتى يحارب المرتدين .. ومدعى النبوة؟

ما الذى كان سيحدث ؟

وهل كان سيغزو الإسلام الفرس والروم .. ويحطم أركان أعتى الإمبراطوريات؟ .

أم كان الدين الإسلامى سينزوى فى الجزيرة العربية وحدها؟

عشرات الأسئلة الحائرة يمكن أن تبرز فى الذهن لو تولى الخلافة إنساناً آخر غير الصديق .

لقد آثر الرجل بكل الإيمان .. وبالشجاعة الخارقة عن المألوف أن يحارب فى كل الجبهات مرة واحدة فإذا بمعالم الصورة تتغير ويتحول الظلام إلى نور .. والخوف إلى أمن .. والقلق إلى استقرار . وتتغير الحياة على ظهر الدنيا كلها بعد قرار الصديق الخالد النابع من إيمانه العميق وتلمذته على أعظم أستاذ عرفته البشرية محمد عليه الصلاة والسلام .. فإذا بقراره الحاسم هذا بداية جديدة .. لحياة

جديدة . . لا فى الجزيرة العربية وحدها . . بل فى كل ركن من أركان الدنيا . . وبفضل سياسته الممتازة تلك، انتشر الإسلام إلى أماكن فى الأرض ما كانت تخطر على بال أحد.

تولى أبو بكر الخلافة . . والصورة كما عرفنا من القتامة . .

فما أكثر الذين دخلوا الإسلام تظاهراً، ولم يتمكن الإسلام ويثبت فى قلوبهم وخاصة فى أطراف الجزيرة العربية . . حيث ظهر من ادعى النبوة . . كطلحة شيخ قبيلة بنى أسد . . والذى أطلق عليه المسلمون طليحة تصغيراً وتهويناً من شأنه، بينما ظهر مسيلمة الكذاب في اليمامة، وسجاح فى بنى تميم . . وفى اليمن ادعى النبوة الأسود العنسى . . وفى عمان أدعى النبوة التاج لقيط بن مالك .

وبجانب هؤلاء الذين فتنوا الناس فى أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية، ظهرت مشكلة مانعى الزكاة . .

ورأي أبو بكر أن يحارب فى كل الجبهات . .

وأن يرسل جيش أسامة لأطراف الشام للانتقام لشهداء مؤتة . . وتأمين الحدود مع الرومان، وخاصة بعد أن هزموا الفرس، وفرحوا بقوتهم، بجانب الدور الذى قام به اليهود الذين أخرجهم النبى من المدينة فى بث الفتنة، وتأليب الروم على المسلمين . . فكانت بعثة أسامة لفرض هيبة المسلمين . . وإشعار العالم بأن هناك قوة نامية جديدة لا بد أن يحسب حسابها.

وفى نفس الوقت صمم أبو بكر على القضاء على المرتدين ومانعى الزكاة.

هنا تبدو عبقرية الرجل وعظمته وبعد نظرة فقد رأى البعض مهادنة مانعى الزكاة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب الذى قال لأبى بكر:

كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أمرت أن أقاتل حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله».

ولكن أبا بكر .. ببعد نظره .. غضب من عمر .. وقال:

والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .. فان الزكاة حق المال.. والله لو منعونى عناقاً كان يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها.

وكان أول عمل بدأ به أبو بكر الخلافة هو إيفاده جيش أسامة لتحقيق الهدف الذى من أجله كان النبى قد عزم على القيام به على الحدود مع الرومان .. سير أبو بكر هذا الجيش رغم الفتن التى ظهرت .. وموجات الردة .. وكان أسامة شاباً صغيراً فى نحو العشرين من عمره ، مما جعل بعض الصحابة يعترضون على ذلك، ومنهم عمر بن الخطاب.. الذى صاح فيه أبو بكر:

عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب .. استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه.

وخرج جيش أسامة متوجهاً إلى الشام، ولم يستمع أبو بكر لأحد من الذين نصحوه بأن يظل الجيش لحماية المسلمين . . فكيف يخالف أبو بكر أمراً من أوامر رسول الله . . وهو الذى عرف أنه كان مخلصاً للنبى كما لم يخلص لأحد . . ومنفذاً لتعاليمه . . ومتبعاً لكل صغيرة وكبيرة . . أليس هو القائل رداً على هؤلاء الذين حاولوا أن يؤخروا انطلاق جيش أسامة:

والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو لم يبق غيرى لأنفذته.

وخرج الموكب العظيم . . موكب الجيش الذى يقوده أسامة بن زيد . . موكباً جليلاً مهيباً . . به عدد كبير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان أسامة على جواده وخرج الخليفة العظيم يودع الجيش بنفسه. . وكان أسامة على فرسه، وأبو بكر يسير بجانبه . . حتى شعر أسامة بالخجل . . كيف يركب والخليفة الوقور يسير بجانبه، فيقول للخليفة:

إما أن تركب أو أنزل إلى جانبك.

فيرد عليه الصديق :

والله لا تنزلن . . ووالله لا أركب . . وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة.

وهنا تظهر صورة من أعظم الصور فى التاريخ إشراقاً.

إن هذا الجيش الذاهب لملاقاة أعتى قوة عرفها التاريخ وهى دولة الروم لا يذهب لمجرد الحرب .. ولكن ذهب لتحقيق هدف محدد.. هو أن يعرف الروم بقوة الإسلام فلا يتجرؤون على غزو المسلمين، كما أن الهدف الآخر هو إعطاء هؤلاء درساً لما سوف تكون عليه قوة الإسلام التى تنطلق ليغمر نور الإسلام إرجاء الدنيا.. ولكن هذا الجيش لا ينطلق من فراغ فكرى أو حضارى إنه مجموعة من المؤمنين الذين يفضلون الموت على الحياة .. وقد غرس فيهم الإسلام مجموعة من القيم الحضارية الإسلامية..

وليس مجموعة من قطاع الطرق .. أو جماعة يهددون أمن جيرانهم .. ولكنه جيش النور..

إنه بداية الزحف الإسلامى العظيم .. وإن له قيمه الذى سوف يسير عليها .. ويجدد هذه القيم بنفسه .. عندما ينصح الجيش الزاحف .. ويعطيهم القيم الحقيقية للحضارة الإسلامية التى يجب أن تسود سلوكهم فى القتال .. أنه يخطب فيهم قائلاً :

« أيها الناس .. قفوا .. أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تفسدوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للمأكلة، وسوف

تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فاذا أكلتم منها شيئاً بعد شئ، فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون قوماً فحصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله ».

وخرج جيش أسامة مع هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة هجرية . . خرج فى ثلاثة آلاف فيهم ألف فارس . . وسار الجيش ووجهته كما أمرهم أبو بكر هى نفس الوجهة التى كان الرسول قد أعد لها هذا الجيش، فقد قال له أبو بكر:

« أصنع ما أمرك به نبى الله صلى الله عليه وسلم، ابدأ ببلاد قضاعة، ثم أيت آبل، ولا تقصرن فى شئ من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تعجلن لما خلفت من عهده.

ورجع أبو بكر الصديق، وانطلق جيش أسامة نحو الشمال. .

وشاهد عمر الخليفة ومعه قماش يريد أن يبيعه فى السوق واستوقفه عمر وسأله عما يصنع، وعلم أنه يريد أن يتاجر حتى يستطيع أن يطعم أولاده، وأشار إليه عمر أن يذهب إلى بيت مال المسلمين . . وأن يفرض له ما يعيش به حتى يتفرغ لأمور المسلمين . . وفرض له كل يوم نصف شاة، على أن يأخذ كسوة الصيف، وكسوة الشتاء، والذى يبلى منها يرده إلى بيت المال ويأخذ غيره.

ورجع جيش أسامة بعد أربعين يوماً، وفى رأى آخر بعد سبعين يوماً بعد أن حقق الأمل الذى كان معقوداً عليه . .

عادل بالغنائم . . كما حققت هذه الحملة هدفاً معنوياً . . فقد خشى الأعداء من قوة المسلمين، لأنه لو كان الإسلام ضعيفاً ما أرسل أبو بكر هذا الجيش . .

لقد ظهر معدن الصديق . .

وظهرت قدرته الفائقة على إدارة شئون الحكم . .

فهو يعلم الوقت الذى انطلق فيه جيش أسامة إلى الشام . . أن الأمور لا هى بالسهلة ولا بالهينة، وأن الفتن أطلت برؤوسها . . وأن بالقرب من المدينة نفسها قبائل عزمت على عدم إعطاء الزكاة، بجانب مدعى النبوة فى الأماكن الأخرى . . لقد انقلب الخليفة الهادئ الطيب إلى إنسان جعل منه الإيمان فى صلابة الأسود وشجاعتها . . لقد قرر أن يجابه الأعراب الذين أسلموا بألسنتهم ولم يدخل الإيمان قلوبهم . . فقد أغار بعض هؤلاء الأعراب على مشارف المدينة، ولكن أهلها تصدوا لهم، واستطاعوا أن يجعلوهم يفرون . . وجند أبو بكر بعض المسلمين وخرج معهم بنفسه تحت جنح الظلام، وعند الفجر كان يهاجم الأعداء فى (ذى القصة) . . أخذهم بغتة . . فاذا بهم أمام عنصر المفاجأة يلوذن بالصحراء هاربين بجلودهم . . فنجا من نجا . . وقتل من قتل . . وضرب الخليفة المثل

الأعلى فى شجاعة العقل وشجاعة القلب .. وبذلك وضع بذور الأمن فى المدينة .. وشعر الناس بالكثير من الاستقرار .. خاصة بعد أن رجع جيش أسامه ومعه الغنائم .. بعد شنه الغارات على بلاد قضاعة فى شمال الجزيرة العربية .. وشعر الخليفة العظيم بالاطمئنان على المدينة، ولكن ما زال الخارجون عن النظام يهددون السلام والأمن والطمأنينة التى سادت البلاد فى أخريات حياة الرسول..

ومن هنا فقد صمم أبو بكر أن يقضى على كل جيوب الفتن .. فقاد بنفسه الجيش مهاجما عبسا وذبيان .. منزلاً بهم هزيمة قاسية .. إن أبا بكر الذى تجاوز الستين من عمره .. يقود الجيش بنفسه .. وخشى الناس أن يصاب بسوء وهو خليفة رسول الله .. فقالوا له:

- إنك إن تصب لم يكن للناس نظام، ومقامك أشد على العدو فابعث رجلاً فان أصيب بعثت بآخر.

وكان رد الفارس الشيخ:

- والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى.

* * *


حروب في كل الجبهات

حروب الردة

من الممكن أن نقول - لو ألقينا نظرة على خريطة الجزيرة العربية- أن الإسلام قد ثبت جذوره بعد وفاة النبى فى مكة والمدينة والطائف.

أما فى غير ذلك من القبائل فقد كان إيمان الناس به ضعيفاً. .

فمنهم من حاول منع الزكاة وحاربهم على ذلك أبو بكر.

ومنهم من ارتد كبنى طى وأسد وغطفان الذين اتبعوا طليحة بن خويلد الأسدى، وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة الكذاب.

أما أهل اليمن . . فقد خدعهم الأسود العنسى.

وقد عزم الخليفة أن يقضى على المرتدين مهما كانت الظروف، ومن هنا فقد عقد أحد عشر لواء، يقود كل لواء منها قائد حتى يعيدوا للإسلام قوته وصولته فى أنحاء الجزيرة العربية . . تمهيداً للقيام بدور آخر جد خطير . . وهو مجابهة قوى الفرس والروم بعد ذلك . . عقد أحد عشر لواء للقضاء على المرتدين على النحو التالى:

* خالد بن الوليد ووجهه إلى طلحة بن خويلد الأسدى فاذا أتم مأموريته توجه بعد ذلك إلى مالك بن نويره بالبطاح.

* عكرمة بن أبى جهل ووجهه إلى مسيلمة باليمامة.

* شرحبيل بن حسنة ووجهه فى أثر عكرمة.
* المهاجر بن أمية ووجهته الأسود العنسى ثم التوجه إلى كندة.
* حذيفة بن محصن الغطفانى إلى عُمان.
* عرفجة بن هرثمة ليقاتل بهرة.
* سويد بن مقرن يتوجه إلى تهامة فى اليمن..
* العلاء بن الحضرمى إلى البحرين..
* طريفة بن حاجز إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن.
* عمرو بن العاص إلى قضاعة.
* خالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام.

وكان كتاب الخليفة إليهم .. أى إلى كل قائد من هؤلاء القادة يعطى دلالة على عظمة الصديق .. فليس الهدف من هذه الحرب إلا عودة الإسلام إلى قوته .. وعودة المسلمين إلى الحق فان أبوا فقطع الرقاب .. إنه فى كتابه إلى القواد يقول لهم:

« بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (لفلان) حين بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله .. سره وجهره .. وأمره بالجد فى أمر الله، ومجاهدة من تولى عنه ويرجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان.. بعد أن يعزر إليهم .. فيدعوهم

بدعاية الإسلام، فإن أجابوه أمسك عنهم . . . وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له، ثم ينبئهم بالذى عليهم، والذى لهم، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم، لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم، فمن أجاب الله وأقر له قبل ذلك منه . . وأعانه عليه بالمعروف . . وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل أو كان الله حسيبه بعد فيما استسر به، ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل حيث كان، وحيث بلغ مراغمه لا يقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى إلا الإسلام . . فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه . . ومن أبى قاتله . . فان أظهره الله عليه عز وجل قتلهم فيه كل قتله بالسلاح والنيران، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغانه، ويمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلاً يكونوا عيوناً ولئلاً يؤتى المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول».

وكتب إلى المرتدين جميعهم كتباً صورتها واحدة وهذا نصها:

كتب أبو بكر إلى المرتدين:

« بسم الله الرحمن الرحيم . . من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابى هذا من عامة أو خاصة أقام

على الإسـلام أو رجع عنه، سلام على من اتبع الهـدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والهـوى، فانى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأومن بما جاء به (أما بعد). .

فان الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق من عنده إلى خلقه . . بشيراً ونذيراً . . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . . لينذر من كان حياً ويحق القـول على الكافرين، يهدى الله للحق من أجاب إليه ، وضرب رسـول الله صلى الله عليه وسلم بإذنه من أدبر عنه . . حتى صـار إلى الإسلام طوعاً أو كرهاً . . ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله، ونصح لأمـته وقضى الذي عليه، وكان الله قد بين ذلك لأهل الإسلام فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾ [الزمر: ٣٠]

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) ﴾

[الأنبياء: ٣٠]

وقال للمؤمنين: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

فمن كان يعبـد محمداً فان محمداً قد مـات، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فان الله بالمرصاد . . حي قيوم لا يموت ولا تأخذه

سنة ولا نوم. حافظ لأمره، منتقم من عدوه بحزبه، وإني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله، وما جاء به نبيكم وأن تهتدوا بهديه . . وأن تعتصموا بدين الله عز وجل . فانه من لم يهد الله ضل، وكل من لم يعافه مبتلى، وكل من لم ينصره مخذول . . فمن هداه الله كان مهدياً ومن أضله كان ضالاً

﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾

[الكهف: ١٧]

ولم يقبل منه فى الدنيا عمل حتى يقر به . . ولم يقبل له فى الآخرة صرف ولا عدل، وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به، اغتراراً بالله عز وجل وجهالة لأمره وإجابة للشيطان، وقال جل ثناؤه ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف: ٥٠]

وقال جل ذكره: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٦]

وإنى قد أنفذت لكم خالد بن الوليد فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحد، ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه.

ومن أبى أن يقاتله على ذلك ولا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة، ويسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن آمن فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية والأذان فان أذن المسلمون فإذنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فاسألوهم بما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم وإن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى لهم».

وسير هذه الكتب قبل مسير الأمراء ثم خرجت الأمراء معهم العهود كل إلى وجهته.

وكتب أبو بكر كتاباً آخر يطلب فيه من قادة جيوشه أن يقرأوه على المرتدين قبل إقرار الحرب، فان عادوا إلى الإسلام فلا حرب وإن ظلوا على ماهم فيه من عماية فلا مفر من الحرب، وهذا يعنى أن الخليفة لا يريد أن تراق الدماء . . وأنه لا يلجأ إلى الحرب إلا للضرورة القصوى.

مهما يكن من شئ فقد استطاعت هذه القوات التى أرسلها الصديق أن تهزم الخارجين عن الإسلام . . وأن تحطم صولتهم . . وأن تعيد للإسلام مكانته فى النفوس . . ومن خلال هذه المعارك انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً كما أبلوا بلاء حسناً . . وظهرت بطولات إسلامية خالدة . . وستظل خالدة ما دامت الحياة، وهناك

صور من هذه البطولات تدل على قوة الإيمان وما يصنعه في النفوس:

نرى مثلاً - البراء بن مالك - وهو شقيق أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ . . وجهاده العظيم في اليمامة يدعو للإعجاب . كان يومها تحت قيادة خالد بن الوليد للقضاء على مسيلمة الكذاب . . كانت المعركة على أشدها وأتباع مسيلمة الكذاب يقاتلون بعنف حتى كاد ميزان القوى أن يتغير لصالحهم . . هنا وقف البراء يخطب الناس:

« يا أهل المدينة . . لا مدينة لكم اليوم . . إنما هو الله . . . والجنة »

وأخذت هذه الكلمات تتردد صداها بين المسلمين، فقاموا قومة رجل واحد يقاومون الأعداء . . وهرب الأعداء إلى حديقة وأغلقوا أبوابها . . وهنا طلب البراء بن مالك من زملائه أن يلقوا به داخل أسوار الحديقة حتى يفتح لهم الباب . . ثم قام فألقى بنفسه داخل الحديقة، وفتح الباب، بعد أن أثخنته الجراح من سيوف الأعداء، ووصل المسلمون ليحققوا انتصارهم الباهر على أعداء الله.

ولم يستشهد البراء في هذه المعركة . . وعاده خالد بن الوليد بنفسه . . ولكنه استشهد فيما بعد في معارك الإسلام الكبرى . . استشهد في معركة (تستر) بعد ذلك وجيوش الإسلام تقاتل جيوش الفرس، وذلك في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . .

لقد حققت جيوش المسلمين الانتصار على الأعداء، وهزم طليحة ابن خويلد وهرب مع زوجته . . ولكنه عاد إلى الإسلام، وكان له بعد ذلك مواقف ممتازة وهو يحارب الفرس والروم وكان يأبى أن يقابل الخليفة أبو بكر خجلاً من موقفه السابق ضد الإسلام . . وقد استطاع خالد بن الوليد أن يقضى على الردة التى اجتاحت بنى تميم . . وقتل زعيمهم مالك بن نويره، ثم تزوج زوجته . . وهذه الحادثة نسوقها لما كان لها من أثر فيما بعد فى سير الأحداث، فقد آلم عمر بن الخطاب موقف خالد هذا . . كيف قتل مالك ويتزوج بزوجته . . وهل قتله للزواج منها . . حتى طلب من أبى بكر أن يعزل خالد لأنه تناهى إلى سمعة أن مالك رجع إلى الإسلام ولم يشفع له ذلك عند خالد . . إلا أن أبا بكر كان يرى فى خالد سيفاً من سيوف الله . . وأنه يؤدى مهمة جليلة وأنه اجتهد وأخطأ فلا يحق له العزل . . أو على حد تعبيره لعمر:

« تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد فإنى لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين»، ونحن نعرف من سير الأحداث بعد ذلك أن عمر لم يغير موقفه من خالد . . فعزله وهو فى قمة انتصاراته فى الشام عندما تولى الخلافة.

لقد انتهت حروب الردة وقتل مسيلمة الكذاب وعدد كبير من مؤيديه من بنى حنيفة، وانتصرت الجيوش الإسلامية فى عمان واليمن واليمامة.

ولقد كان لحروب الردة بجانب أنها أعادت العرب إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى فائدة أخرى . . فقد لاحظ عمر بن الخطاب أن عدداً كبيراً من حفاظ القرآن قد استشهدوا في حروب الردة . . وهذا ما دفع عمر أن يشير على أبي بكر بجمع القرآن . . وتردد أبو بكر في أول الأمر . . فهل يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله . . إلا أن الله شرح صدره لذلك فأمر بجمع القرآن الكريم حفاظاً عليه من الضياع . .

وينقل لنا التاريخ صوراً أخرى عظيمة لكفاح المؤمنين في معارك الردة . . ويمكن أن نتوقف مرة أخرى عند طليحة الأسدى الذى ادعى النبوة، وحارب المسلمين، وهزم وفر إلى الشام . . وأسلم، وأبلى بلاء حسناً بعد ذلك في معركة نهاوند . . فقد عفا عنه أبو بكر . . وفي خلافة عمر بن الخطاب لم ينس له موقفه ضد الإسلام . . وإدعاءه النبوة . . فقد مر يوماً في المدينة في خلافة عمر . . وأنبه عمر عما كان منه . . ولكن الرجل كان يبدو أنه كان خفيف الظل . . فعندما قال له إنك قتلت عكاشة بن محصن فرد طلحة قائلاً :

– أن عكاشة بن محصن سعد بي وشقيت به . . وأنا أستغفر الله .

وهو يعنى أنه أخذ ذنب عكاشة . . بينما عكاشة نفسه استشهد . . واستشهاده هذا يدخله الجنة .

ولكن عمر لم يمهله فقال له :

- أنت الكاذب على الله حين زعمت أنه أنزل عليك . . إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم . . وقبح أدباركم شيئاً . . فاذكروا الله أعفة قياماً ، فان الرغوة فوق الصراح .

فرد طليحة :

- يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذى هدمه الإسلام كله فلا تعنيف على ببعضه .

ونحن نعرف أن المعركة الضارية التى قامت بين جيش خالد وجيش مسيلمة . . والذى قتل فيها عدد كبير من الجانبين قدره بعض المؤرخين بعدة مئات وقدره البعض الآخر بعدة ألوف . . وقد انتصر المسلمون كما أسلفنا عندما فتح باب الحديقة التى احتمى بها أتباع الكذاب . . على يد البراء بن مالك، والصحابى أبى دجانة . . الذى استشهد فى هذه المعركة .

وقد قتل مسيلمة الكذاب (وحشى) الذى قتل بسهمه حمزة عم النبى ﷺ فى معركة أحد . . وكان يردد قوله: أنه قتل خير الناس (حمزة بن عبدالمطلب) وقتل شر الناس (مسيلمة الكذاب) .

وفى معركة اليمامة استشهد زيد بن الخطاب (شقيق عمر) . . وبعد معركة اليمامة تلك واستسلام قبيلة حنيفة خافت القبائل مغبة عصيانها وتمردها . . فعادت إلى حظيرة الإسلام . . وكانت أهم

القبائل التى انضمت إلى الإسلام، وكان له أثرها البعيد المدى فى التاريخ السياسى للإسلام هى قبيلة بنى بكر .. وهى تضم قبائل كبيرة . . تنتشر ما بين الحيرة وجنوب الفرات حتى السواحل الجنوبية للخليج العربى .. وقد ذهب زعيمها المثنى بن حارثة إلى المدينة حيث استقبله أبو بكر استقبالاً حاراً . . والمثنى بن حارثة سوف يلعب دوراً كبيراً فى فتوح العراق كما سوف نرى . .

المهم أن حروب الردة وما فيها من أهوال القتال. . . وسقوط الشهداء . . استمرت عاماً . . عاد بعدها السلام والوئام إلى شبه الجزيرة العربية . . وأصبح أبو بكر الصديق أول خليفة للرسول . . يمد سلطانه إلى كل هذه الجهات . . واستطاع أيضاً أن يدعم ما نطلق عليه فى الاصطلاح الحدث الجبهة الداخلية . . كما أن انتصارات المسلمين الساحقة فى حروب الردة قد فجر فى أعماقهم . . ما يتطلب الرجل العربى المسلم . . الغيور على دينه من عزة النفس وقوة الاعتماد على الله وعلى النفس . . فشعر المسلمون بأنهم قوة تقف السماء بجانبها . . وأنه من الواجب عليهم أن ينشروا نور الله فى كل مكان .. وأنه لا بد أن يؤذن المؤذن (الله أكبر) فى كل أرض، وفى كل مكان . . وأنه حان الوقت أن يتحقق أمل رسول الله أن ينشر نور الإسلام فى كل العالم . . فالرسول العظيم هو القائل:

« بعثت إلى الناس كافة . . فان لم يستجيبوا لى فإلى العرب . .

فإن لم يستجيبوا لى فإلى قريش . . فان لم يستجيبوا لى فإلى بنى هاشم . . فإن لم يستجيبوا لى فإلىّ وحدى».

والإسلام تعدى بنى هاشم إلى قريش إلى المدينة إلى الجزيرة العربية كلها . . وأنه آن الأوان أن ينطلق الزحف الكاسح ليرفع راية الإسلام فوق كل البقاع . . وأن تدوى على المآذن «الله أكبر» . . فالنبى الكريم وضع خطوط هذا الزحف المقدس عندما قال:

« بعثت إلى الأحمر والأسود ».

أى إن الإسلام سوف ينطلق يطوى قارات الدنيا تحت لوائه . . فإذا ما تحقق هذا الوعد . . فلا فرق بين أبيض ولا أسود . . فالإسلام يذيب الفوارق الطبقية والعنصرية . . ويصبح الجميع بنعمة الله إخواناً.

إذن فقد مهد الخليفة الأرض للفتوحات الإسلامية العظمى . . وكانت هزيمة المرتدين . . وعودة الأمن والوفاق إلى ربوع البلاد . . فى ظل حاكم لا يبدع شيئاً . . ولكن يرى فى شخصية نبيه العظيم المبهرة . . وفى سلوكه القدوة والمثل . . فكانت أيامه امتداداً لأيام الرسول العظيم . . بحكم شخصية الصديق . . وصلابته التى لا تعرف أنصاف الحلول . . وغيرته الشديدة على الإسلام . . حتى أنه خرج يحارب بنفسه المرتدين فى أول الأمر . . كل ذلك جعل للدولة الإسلامية هيبة ووقاراً . . وأصبحت الحكومة الإسلامية فى

المدينة . . قوية الجانب . . مهابة السلطان . . وأخذت الدول المجاورة له يحسبون لهذه القوة السياسية الخطيرة ألف ألف حساب . .

ثم كان قرار الخليفة العظيم . . أنه أعطى إشارة البدء . . لتنطلق قافلة النور . . تنشر النور فى أركان عالم متهرئ.

عالم عاش تحت وطأة الاستعمار الفارسى والرومانى . . وذاق ويلات الضرائب الباهظة وانتهاك كرامة الإنسان . .

وقد أن الأوان أن يبزغ فجر حضارة جديدة . .

حضارة شابة . .

حضارة تعيد إنسانية الإنسان . . وتنشر ألوية العدالة فى عالم كان قد فقد العدالة . . وينشر الأمن والأمان . . والعدل والسلام . . وما كان لحضارة قد تهرأت وشاخت كحضارة الفرس . . أو حضارة الرومان لتصمد أمام وهج الحضارة الإسلامية الرائعة . .

لقد أعطى الخليفة الامر بأن تتحرك جيوش الإسلام لتدك معاقل أعتى دول العالم القديم . . دولة الفرس . . ودولة الرومان . . ومن هذه الشرارة . . أخذ التاريخ لنفسه مجرى آخر . . وأخذت الحياة البشرية نفسها شكلاً آخر . . وسارت الأحداث بسرعة مذهله . . لتغير معالم الدنيا كلها . . ولتغير خريطة العالم كله . . ويطل فجر جديد . . فجر الحضارة الإسلامية . . وذلك ببداية الزحف العظيم . . زحف الحضارة الإسلامية نحو العراق والشام ومصر

وفلسطين وفارس .. ثم تنطلق بعد ذلك إلى آفاق لم تكن تخطر على البال . . .

ونقف بعض الوقت عند الفتوحات الإسلامية الكبرى الذى أعطى إشارة التنفيذ لها الخليفة الملهم أبو بكر الصديق .

* * *



انطلاق الدعوة

الفتوحات الإسلامية

بعد أن وحد أبو بكر القبائل العربية . . وأعاد للحكومة المركزية فى المدينة سيطرتها على أنحاء شبه الجزيرة العربية التى لم تعرف الخضوع لحكم مركزى . . بل كانت كل قبيلة تعيش لنفسها وبنفسها . . ومن هنا فقد تغيرت ملامح الحياة فى الجزيرة العربية . . وأظلت هذه الحياة حكومة واحدة . . لها حاكم واحد . . ينفذ أوامر الشريعة الإسلامية . . ويحكم الناس بالقرآن الكريم . . وشعر العربى فى ظل الحياة الجديدة بالقوة والعزة . . وتطلع إلى حياة جديدة . . حياة فيها الأمن والأمان . . وفيها الشعور بالتوافق مع نفسه ومع مجتمعه . . والدين الإسلامى رسم له هذه الحدود . .

حدود العلاقة بينه وبين الله . .

والعلاقة بينه وبين نفسه . .

والعلاقة بينه وبين الآخرين . .

عليه أن يؤدى ما فرض عليه كمسلم لله . .

وعليه أن يؤدى ما عليه للمجتمع من زكاة ومن علاقات إنسانية مستنيرة كما رسم حدودها الإسلام . .

ومن هنا فقد عرف العربى موضع خطاه فى الحياة . . وعرف أنه

يسير بحياته وفق منهج اللّه . . وفق مبادئ الإسلام . . فأصبحت له رؤيا مستنيرة للحياة . . ومن هنا فقد تهيأ هذا الإنسان البدوى . . وقد هذبه الإسلام إلى أن يقوم بدور فى صنع التاريخ . . وفى صنع الحضارة الإسلامية . .

وعلى رأس أول حكومة للإسلام بعد النبى كان أبو بكر الصديق الذى ظهرت مواهبه السياسية . . وقدراته الهائلة فى الحكم . . ونفاذه لحقائق الأشياء بإلهام من اللّه . . فاذا بالمجتمع الجديد بفضل قيادة أبو بكر الذى حافظ محافظة كاملة على روح الإسلام متبعاً الرسول فى كل خطواته أن يقدم دفعة هائلة للزحف الإسلامى الساحق . . لنشر الإسلام بين ربوع العالم تحقيقاً لأمل رسول الله أن ينتشر الإسلام فى المشارق والمغارب . .

وقد نهى الإسلام أن يحارب المسلم المسلم لأنه على حد تعبير النبى عليه الصلاة والسلام:

« إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار» . . قيل هذا القاتل . . فما بال المقتول؟ . . قال : «لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه» . .

وإذا كان الإسلام قد نص على ألا يحارب المسلم المسلم، فلا بد أن يضع المسلم يده فى يد المسلم لمحاربة أعداء اللّه . . ونشر نوره، وكان هدف أبو بكر هو إخضاع القبائل العربية الخاضعة للفرس فى

العراق، والقبائل العربية فى الشام الخاضعة للرومان للإسلام. . ومن هنا كان بداية الاحتكاك بين العرب والفرس . . وبين العرب والرومان.

صحيح أن بداية الاحتكاك بين الفرس والعرب تظهر قبل ذلك عندما نشبت الحروب بين الفرس وقبائل بكر وانتصر فيها العرب على الفرس فى معركة (ذى قار)، إلا أن المثنى بن حارثة بعد حروب الردة استطاع أن يزحف بجيشه شمالاً من الجنوب الشرقى للجزيرة العربية ليصل إلى مصب دجلة وقضى على نفوذ الفرس فى البحرين . . وطلب المثنى من الخليفة أن يعطيه الأمر بفتح العراق . . فقبل أبو بكر على أن تكون القيادة لخالد بن الوليد . . ويتقدم خالد من الجنوب ويلتقى مع الفرس فى عدة معارك ينتصر فيها انتصاراً ساحقاً كمعركة الحفير والمذار والولجة ، ومعركة أليس.

وقد غاظ خالد أن يرى القبائل العربية تساعد الفرس . . ولذلك فقط قطع رقاب عدد كبير منهم عندما حقق النصر . . حتى تلون نهر الفرات بالدم . . وهذا الحادث أخاف القبائل العربية فرفضت الانضمام إلى الفرس . . وتقدم خالد ومعه عياض بن غنم إلى الحيرة التى سقطت تحت يد المسلمين. . وكان هذا انتصاراً مذهلاً وخاصة وأن المدينة لا تبعد عن عاصمة ملك كسرى أكثر من مائة ميل . . وكان هذا النصر قوة دفع هائلة للمسلمين . . فقد رفع روحهم المعنوية.

حدث هذا فى الوقت الذى برزت فيه الخلافات السياسية فى فارس بعد أن قتل شيرويه والده كسرى ابرويز . . واغتصب الملك . . ولكن شيرويه قتل هو الآخر بعد عدة شهور قدرها البعض بثمانية شهور وقدرها مؤرخو العرب سنة وتسعة شهور .

المهم كثر النزاع السياسى فى فارس على العرش بعد أن قتل شيرويه عدداً من الذكور من الأسرة المالكة إلى أن تولى الحكم يزدجر . . وكان فى الخامسة عشر من عمره أو أكبر من ذلك قليلاً . . ومن هنا نرى أن الحياة فى فارس كانت مضطربة نتيجة ما كان بها من حروب أهلية استمرت قرابة أربع سنوات . . بجانب حروبها مع الروم . . تلك الحروب التى دارت رحاها على مدى ربع قرن من الزمان . . كل تلك العوامل أورثاها الضعف والتفكك والانحلال . . ومن هنا كان من الصعب على الفرس مجابهة هذه القوى الشامخة . . القادمة من الصحراء . . يدفعها الإيمان بالدين الجديد إلى الانتصارات الساحقة . . ويدفعها تمرسها فى القتال . . وما يتبع ذلك من شرف الانتصار إلى ساحة الحروب بلا خوف ولا وجل . . فان انتصروا فهو العزة والكرامة والقوة . . وأن انهزموا فهى الشهادة فى سبيل الله والجنة . . فكانوا قوة كالإعصار لا تعرف الخوف ولا التردد . . ومن هنا نرى خالداً يجتاح بجيوشه المناطق الغنية الواقعة شرق الفرات . . وفرض الجزية على أهلها . . وغنم غنائم كثيرة . .

كان خمسها يذهب إلى الخليفة فى المدينة والباقى يوزع على أفـراد الجيش حسب سنة رسول الله ﷺ . .

كان معظم جيش خالد من البدو بعد أن رجع الصحابة إلى المدينة عقب حروب الردة . . فقد اعتمد خالد على المثنى بن حارثة الشيبانى . . وعلى القعقاع بن عمرو وهو شيخ حكم إمارة الحيرة بعد أن استولى عليها . . وتقدم خالد إلى الشمال من نهر الفرات . . ثم عبر النهر إلى (الأنبار) وحاصرها واستولى عليها . . ثم اتجه غرباً إلى الصحراء . . إلى واحة (عين القمر) واستولى عليها بعد قتال شديد مع العرب الموالين للفرس ومعهم بعض الجنود من الفرس . .

المهم أن خالداً حقق انتصارات مذهلة في العراق . . فى الوقت الذى كان أبو بكر يهتم فيه اهتماماً خاصاً بالشام وفلسطين . لأن النبى ذهب بنفسه إلى تبوك لملاقاة الروم الذين لم يجرءوا على مقاتلته . . ثم كانت معركة مؤته وأمره عليه الصلاة والسلام لأسامة ابن زيد بمقابلة الروم للانتقام لشهداء مؤته . . وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى . . وأسامة ما زال معسكراً فى الجرف . . كل هذه الأسباب دفعت بالخليفة العظيم أبى بكر أن يحقق ما كان النبى يريد أن يحققه . . فاذا به يعقد الألوية لأربعة من قواده للاتجاه نحو الشام وفلسطين . . على رأس كل لواء من الجيش قائد وهم : عمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبى سفيان، وأبو عبيدة

عامر بن الجراح ثم أرسل إلى خالد بن الوليد فى العراق أن ينضم بنصف جيشه إلى هذه الجيوش التى سوف تواجه قوات الروم الضخمة، وأن تعقد القيادة العامة لخالد . .

واستطاع خالد أن يعبر الصحراء الشاسعة من العراق إلى الشام فى طريق غير مأهولة فى شجاعة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً ليصل إلى الجيوش الإسلامية فى غضون عدة أيام قليلة قدرها المؤرخون بتسعة أيام فقط . . بعد أن خلف المثنى بن حارثة على العراق .

وكانت الجيوش العربية قد تقدمت واحتلت (بصرى) وعجزت القبائل الموالية للروم على صد هذه الجيوش . . وكان على الدولة الرومانية ذات القوة الهائلة أن تتحرك وهى تشاهد انتصارات المسلمين . . وقام هرقل بنفسه بقيادة جيش ضخم لمواجهة الجيوش الإسلامية . . وكان هرقل يتصور أن العرب لن يصمدوا أمام جيوش الروم . . وكان يعتقد أن عنده من القوة العسكرية ما يحطم بها قوة العرب . .

فهو يتذكر كيف هرب من القسطنطينية أثناء حصار الفرس للعاصمة البيزنطية بقيادة كسرى أبرويز فهرب عن طريق البحر الأسود . . ليزحف بقواته على بعد خمسمائة ميل إلى الشرق . . . إلى أرمينيا . . وينتصر على الفرس فى نينوى ثم زحف إلى المدائن عاصمة كسرى مما اضطر كسرى أن يرفع الحصار عن القسطنطينية والجلاء عن أرض الروم.

إن هرقل يتذكر كل ذلك، ولكنه يشاهد هجوم العرب الكاسح وجرأتهم البالغة . . وعدم ترددهم في القتال فيحسب ألف مرة حساب لهذه القوة العربية الصاعدة . . وكان على جانب اليرموك تحصينات ضخمة . . ومن هنا كان يتخيل أن العرب لن يصمدوا أمام جيش الروم . .

فجيش الروم جيش مدرب . . ومدعماته أضخم . . كما أن الانضباط العسكري فيه ممتاز . . بينما العرب لا يعتمدون على الفنون العسكرية التقليدية . . إنما يعتمدون على شجاعتهم وإيمانهم بالنصر أو بالشهادة . . كما أن الروم لسيطرتهم على البحر المتوسط يمكنهم ببساطة أن يمدوا جيشهم بكل معونة من عتاد أو سلاح أو جيوش . .

وكان هرقل يعلم أن جيوش المسلمين الرئيسية تتجه إلى اليرموك بينما جيش عمرو بن العاص يتوغل داخل فلسطين . . وفكر هرقل أن يكسر جيش عمرو بن العاص أولاً . . وأن يهزمه عند (بئر سبع) . . ومن هنا يمكنه السيطرة على إمدادات الجيش القادم من المدينة فيضطر الجيش الإسلامي إلى الإنسحاب إلى اليرموك . . وبالفعل أرسل عدداً كبيراً من جيشه إليها عن طريق طبرية فالناصرة فقيسارية . .

وعلم قادة العرب بخطة هرقل . . فاذا بهم ينسحبون من اليرموك

تحت جنح الظلام . . وبحركة سريعة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً . . يتقدمون عبر طرق وعرة وصعبة تتخللها الصخور والجبال الوعرة المسالك ليصلوا إلى الكرك (موآب) . . وتدفق المسلمون عبر وادى عربة ليعودوا إلى (بئر سبع) . .

بسرعة هائلة تقدم الجيش الإسلامى لنجدة عمرو بن العاص بقيادة خالد بن الوليد . . القائد العظيم . . ويصل الجيش الإسلامى بسرعة غير متوقعة . . بينما كان الجيش الرومانى الذى ينقل معداته الضخمة، وجيوشه الكثيرة ما زال يواصل سيره . . ويلتقى الجيشان عند (أجنادين) حيث حدثت أعظم معارك الإسلام . . وانتصر خالد على الروم انتصاراً ساحقاً . . شتت شمل قواتهم . . وكان من شهداء هذه المعركة عكرمة بن أبى جهل الذى قاد جيش المسلمين فى حروب الردة فى منطقة عمان وحضرموت . .

وفشلت خطة هرقل . . وعاد الجيش الإسلامى إلى اليرموك فى محاولة للتقدم لاحتلال دمشق، وكان هذا الانتصار العظيم فى أجنادين سنة ١٣ هجرية . . وقد كانت المعركة انتصاراً عظيماً للعرب على أقوى القوى . . على أعتى امبراطورية عرفها التاريخ وهى الامبراطورية الرومانية فقد قوت الروح المعنوية عند العرب واعتبروا أن هذا النصر من عند الله . . وأن هذا وعد الله لنبيه . . وأن هذا تحقيق لما تنبأ به النبى عليه الصلاة والسلام فى غزوة الخندق . . عندما

أعلن والمسلمون فى أشد ساعات الحرج . . والأحزاب تحاصر المدينة نفسها . . وسط هذا الهول . . أعلن النبى عليه الصلاة والسلام . . أن الله سيفتح للمسلمين مملكة الفرس والروم . . وأن مدائن كسرى نفسها ستقع تحت سيطرة المسلمين . . يومها سخر المنافقون . . فهو يعدهم بملك كسرى وقيصر . . بينما المدينة نفسها محاصرة بجيوش ضخمة . . وتسد على أهل المدينة المسالك . . وها هو وعد النبى قد تحقق .

وها هم المسلمون قد حطموا جيش قيصر . .

وها هى قوى النور تشق طريقها وهى تهزم أقوى الامبراطوريات لترفع كلمة لا إله إلا الله محمداً رسول الله . .

إنه الفتح أذن . .

وهذه الفتوحات من الله . .

وإن هذا الانتصار بداية لانتصارات هائلة . . بعدها يكتسح الجيش الإسلامى حصون الطغاة والمستبدين . . وترتفع ألوية الإسلام . . وينتشر الحق . . وينتهى الباطل . . وتختفى أسطورة المظالم الرومانية . . وتتحرر الشعوب من ربقة استعماره الغاشم . .

لنترك جهة الشام وسورياً قليلاً ونعود إلى العراق الذى انسحب منه بنصف الجيش خالد بن الوليد . . فنرى المثنى بن حارثة الشيبانى يحافظ على ما اكتسبه العرب من مساحات فى العراق . .

غير أن يزدجرد الذى تولى الحكم فى فارس يريد أن يحقق نصراً

على العرب يدعم به ملكه . . فأرسل جيشاً لمحاربة المثنى . . وفى مقدمة هذا الجيش (فيل) . . وما كان للعرب عهد بمثل هذ النوع من حروب الفيلة . . غير أن شجاعة المثنى التى دفعته إلى مجابهة هذا الفيل مع جماعة من المسلمين واستطاع أن يلقيه أرضاً بعد ضربه بالسهام . . ولاذ الفرس بالفرار أمام شجاعة العرب . .

وكان المثنى يعتقد أن الفرس لن تجرؤ على حرب جديدة ضده إلا بعد إعداد العدة . . وهذا سيحتاج إلى فترة زمنية قبل المغامرة فى دخول حرب جديدة . . لهذا قرر الذهاب إلى الخليفة فى المدينة . .

وكانت السنة الأولى من خلافة الصديق قد مرت . .

وجاءت السنة الثانية من حكمه حيث كانت الفتوحات الإسلامية، وكانت انتصارات الإسلام هائلة . .

وذهب أبو بكر للحج وجلس فى الكعبة وقد طلب من الناس أن يأتيه من له مظلمة . .

وكان العدل يبسط جناحيه على الناس . .

وكان الشعور بالعزة الإسلامية يملأ نفوس الناس أملاً . .

وكانت النظرة إلى مستقبل أفضل فى يقين الناس . .

وكانوا يوقنون باقتراب الوقت الذى يجنون فيه ثمرات جهادهم . .

كان الصديق يجلس إلى الناس فى الكعبة ليحاول حل مشاكل

المسلمين . . ولكن لم يتقدم إليه أحد بشكوى . . لأنه ليس هناك ظلم ولا جور . . والناس بنعمة الله إخوان . . وشعور المحبة يسود الجميع . .

وعاد أبو بكر إلى عاصمة الخلافة فى المدينة . . يصرف أمور الحكم . . ويتابع الأنباء التى تجسن لسه عن القتال فى الجبهات المتقاتلة . . وأمر بارسال جيش إلى سوريا . .

وجاء المثنى بن حارثة إلى المدينة . . وكان أبو بكر مريضاً . . فلقد أصيب بالحمى عقب استحمامه فى يوم شديد الحرارة . . وارتفعت حرارته فأناب عمر بن الخطاب أن يصلى بالناس . . وحكى له المثنى وأخبره بأحوال جيشه فى العراق . . وطلب مساعدة الخليفة له في العراق . . واستجاب أبو بكر لطلبه وطلب من عمر أن يرسل النجدات لجيش المسلمين فى العراق . . كان المثنى قد وصل وأبو بكر فى أيام مرضه الأخيرة . . وقبل أن يشتد المرض على الصديق . . كانت قد جاءته أنباء انتصار المسلمين على الروم فى أجنادين . . فحمد الله وشكره . .

لنعد إلى جبهة القتال عند اليرموك . . فقد ارتفعت معنويات المسلمين فى اليرموك عند سماعهم نبأ انتصار الجيوش الإسلامية فى أجنادين . .

ولم يكن فى استطاعة الروم التقدم لمجابهة جديدة إلا بعد فترة من

الزمن كانت كافية للمسلمين فى تثبيت ملكهم . . وعندما التقت الجيوش الإسلامية بالروم عند ذلك فى اليرموك سنة ١٥ هـ . . كانت هزيمتهم مفجعة كانت الجيوش الرومانية وأمامها الجيوش الإسلامية وبينهما خندق . . وتولى خالد القيادة . . وجعل الجيش على شكل كراديس . . كل كردوس ألف رجل على رأسه فارس شجاع . . وانقضوا على الرومان بشجاعة خارقة . . وخارت قوى الرومان . . وانتصر الإسلام انتصاراً كبيراً . . وفى أثناء هذه المعركة جاءت الأنباء بموت الخليفة أبو بكر ، وتولية عمر الخلافة . . وأمر عمر أن يتولى القيادة العامة أبى عبيدة بن الجراح . . وكتم أبو عبيدة نبأ هذه الرسالة إلى أن انتهت المعركة بانتصار المسلمين . . وأبلغ خالد بأمر الرسالة . . وعلم خالد . . سيف الله بعزله عن القيادة بأمر عمر فقال:

« الحمد الله الذى قضى على أبى بكر وكان أحب إلىَّ من عمر ، والحمد للّه الذى ولى عمر وكان أبغض إلىَّ من أبى بكر ثم ألزمنى حبه» .

وظل خالد يحارب كجندى بسيط مع الجيوش الإسلامية فى حروب سورية . . إلى أن توفاه الله فى حمص . . لقد كانت معركة اليرموك من المعارك الحاسمة فى التاريخ . . فقد تقلص عن الشام وفلسطين ظل الامبراطورية الرومانية إلى الأبد . . ولم يقم لها قائمة ولم يجابهوا العرب إلا بعد ذلك بقرن من الزمان .

أما الفرس فقد انهزموا فى معركة القادسية هزيمة منكرة فى سنة ١٥ هـ أيضاً.

وهكذا تمت فى خلافة الصديق الانطلاقة الضخمة للفتوحات الإسلامية التى واصلت زحفها المقدس بعد ذلك إلى عهد عمر بن الخطاب والخلفاء الراشدين وفى العهود التالية والتى بلغت ذروتها فى عصر الأمويين.

* * *


صور
من حياة الصديق

صور من حياته

الذى يقرأ سيرة هذا الرجل العظيم . . لا بد أن يقف أمام العديد من الصور التى إن دلت على شئ فإنما تدل على معدن هذا الإنسان العظيم . . ومن خلالها يقف الإنسان عند الكثير من جوانب العظمة.

ولقد وصفه لنا المؤرخون بأنه كان جميل الوجه . . وكان شعر رأسه غزيراً . . وأن بياض وجهه كان مشوباً بصفرة . . كما أنه كان غائر العينين . . معروق الوجه . . وكان وسطاً لا هو بالطويل ولا بالقصير . . قليل لحم الجسم . . كما كان وقوراً حافظاً لأنساب العرب . . حافظاً للشعر . . يؤثر العبارة الموجزة . . حافظاً لأقدار الناس . . وكان متأثراً أشد التأثر بشخصية محمد عليه الصلاة والسلام . . كما كان عصبى المزاج فى بعض الأحيان .. إذا ما وجد من الظروف ما يخرجه عن طوره . . كما كان يندفع فى الحق اندفاعاً لا يعرف أنصاف الحلول . . ومن هنا فقد كان حريصاً أن يجنب الناس مغبة هذه العصبية عندما طلب من الناس بعد أن أصبح خليفة للمسلمين أن يتجنبوه فى لحظات غضبه . .

« اعلموا أن لى شيطاناً يعترينى . . فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى » .

فهو يعلم أن به حدة .. ولكن هذه الحدة ما كانت تظهر إلا فى الأمور التى تجعل الحليم يخرج عن طوره.

وكانت هذه الشخصية الوقورة الجليلة لها هيبتها فى الجاهلية وفى الإسلام . . فقد كان يعمل فى التجارة . . والتاجر الناجح هو الذى يكسب ود الناس . . وكان أبو بكر يكسب ود الناس . . حتى أن الأمانات كانت تودع عنده فى الجاهلية . . كما كان يقضى بين الناس فى المنازعات بجانب اشتهار قبيلته (بنى تيم) برقة الشمائل. . واشتهرت نساؤها بحب أزواجهن لهن . . لرقتهن . . وفضائلهن. .

والدارس للتاريخ الإسلامى يعرف أنه من أوائل المسلمين بل أنه أول من أسلم من الرجال وأنه لم يبخل بماله فى سبيل الدعوة . . وفى إعتاق العبيد. .

وكان بعيداً عن العادات السيئة التى كانت منتشرة بين الناس . . فلم يشرب الخمر فى حياته قط . . فهو القائل:

« كنت أصون عرضى . . وأحفظ مروءتى . . فإن من شرب الخمر كان مضيعاً فى عقله ومروءته ». .

لكل هذه الصفات كان من أحب الناس إلى قلب رسول الله ﷺ.

فقد اختاره ليكون زميل هجرته . .

وأنابه عنه فى الصلاة أثناء مرضه. .

واستشاره فى كثير من الأمور. .

ولا ينسى التاريخ له وقفته بجوار النبى . . عندما قص على الناس نبأ الإسراء والمعراج . . فاذا بالمشركين يرون فى هذا الحدث الذى تحدث به محمد ما يثير الناس عليه . . ويرجع من آمن به إلى دين الآباء والأجداد . . فما كان العقل العربى المشرك بقادر على استيعاب معجزات السماء . . إن محمداً يتحدث حديثاً عجباً . . إنه أسرى به إلى المسجد الأقصى . . حيث صلى بالأنبياء إماماً . . ثم عرج إلى السموات العلى !.

كيف يقطع محمد المسافة الشاسعة بين مكة وبيت المقدس فى هذا الزمن القصير . . ناهيك عن الصعود إلى السماء . .

وذهب بعض المشركين إلى الصدّيـق يقصـون عليه حكاية صاحبه . . ولكن الرجل شديد الإيمان . . قوى اليقين . . لا تزعجه كلمات المشركين . . ولا يتسرب إلى قلبه ذرة من شك فى صدق النبى الكريم . . فإذا به يقول لهم بكل الإيمان الصادق العميق . .

- أى بأس . . أنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك . . أصدقه فى خبر السماء يأتيه فى غدوة أو روحة . . إن كان قد قال فقد صدق !

إيمان عميق أعمق وأثقل من الجبال الرواسى . .

إيمان ينبعث من أعماقه فيرى الوجود بمنظار هذا الإيمان الصادق بالرسالة والرسول .

لقد ذهب أبو بكر مسرعاً إلى الكعبة ، حيث وجد الرسول عليه

الصلاة والسلام مستقبل القبلة فى خشوعة الجليل . . لا يهمه هؤلاء الذين أعمى الضلال قلوبهم . . فلم يفقهوا شيئاً . . ولا يحاولون أن يفقهوا شيئاً . . أداروا ظهورهم لنور الله . . فطمس الله على قلوبهم . . لأن على أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون . .

إن الصديق يقبل على النبى فى جلسته المهيبة . . فيقبل عليه ويقبله وهو يقول :

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله . . والله إنك لصادق . . والله إنك لصادق» .

صورة مشرقة من صورة الإيمان . .

وتمضى الأيام . . وتتوالى انتصارات الإسلام . . ورغم كل الصعوبات . . يدخل النبى العظيم مكة . . ويحطم الأصنام . . وتعود مكة إلى حظيرة الإسلام . . ويسعد النبى سعادة كبيرة بأن هدى الله أهل قريته إلى الإيمان . . ويعفو عنهم . . ويعود إلى المدينة . . وتتوافد الوفود معلنة إسلامها وولاءها للنبى .

وتمضى أيام رسول الله . .

ويرحل أعظم من عرفه الوجود إلى جوار ربه الكريم . .

وتبقى رسالته الخالدة لكل العصور . .

ويشاء القدر أن يتحمل الصديق مسئولية المسلمين بعد رحيل النبى . .

ويقوم الصديق بما يشبه المعجزات . .

ينهي بحروب الردة على من ارتد عن الإسلام . .

ويسير جيش أسامة الذى كان النبى يزمع إرساله لتأمين الحدود مع دولة الرومان . .

ويقضى على مدعى النبوة ومانعى الزكاة . .

يعطى الأمر لمجابهة أقوى امبراطوريتين عرفهما التاريخ وهما دولة الفرس ودولة الرومان . . إنه ينجز كل هذه الأعمال الخطيرة التى غيرت التاريخ كله فى سنتين وبضعة شهور وعدة ليال .

وإذا كنا قد رأينا صوراً لمواقفه الشجاعة فى كل هذه الأعمال . فلنتوقف قليلاً أمام بعض مواقفه التى تبرز أى معدن من الرجال كان هذا الإنسان العظيم ! .

ينتقل أحب الناس إلى قلبه وهو النبى عليه الصلاة والسلام إلى رحاب الله . . وتأتى إليه فاطمة أحب بنات النبى عليه الصلاة والسلام إلى قلب النبى . . تطلب حقها فى أرض فدك التى كان النبى عليه الصلاة والسلام كان قد أعطاها لها . . فالزهراء . . زوج الإمام علىّ . . وابنة رسول الله . . ولكن الخليفة يرى أن فاطمة لا حق لها فى هذه الأرض لأنه سمع النبى ﷺ يقول :

« نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » . .

ولم يرض هذا التصرف فاطمة . .

فالأرض كانت لها منذ أيام الرسول . . أى أنها ليست إرثا فكيف يمنعها أبو بكر حقاً من حقوقها ؟

وأبو بكر يعتقد فى قرارة نفسه أنه يطبق سنة النبى عليه الصلاة والسلام وأصعب شئ على نفسه أن يغضب الزهراء . . كما أنها ترى حتى لو كان ذلك ميراثاً . . أنه ليس من حق أحد أن يمنعها من هذا الميراث . . لسبب بسيط جداً هو أن كتاب الله ليس فيه ما يمنعها من هذا الإرث . . إنها تقول لأبى بكر غاضبة :

« أفى كتاب الله أن ترث ابنتك ولا أرث أبى ! » .

وهى ترى أن الأنبياء يورثون فى القرآن الكريم . . ولا أدل على ذلك من هذه الآية :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦]

والصديق يشعر فى أعماقه بالأسى . .

فهو لا يريد أن يغضب الزهراء . .

وفى نفس الوقت يريد أن يطبق الحديث الذى سمعه من رسول الله . فيقول لها :

« يا حبيبة رسول اللّه . .   والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتى . . وإنك لأحب إلى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات

أبوك أني مت ولا أبقى بعده . . أفترينني أعرف فضلك وشرفك وأمنعك من حقك وميراثك من رسول الله ؟».

ولكنها لا تقتنع بما يقوله أبو بكر . . فتشيح بوجهها عنه وعن عمر بن الخطاب وهى تقول لهما :

« فإنى أشهد اللّه وملائكته إنكما اسخطتمانى وما أرضيتمانى، ولئن لقيت رسول الله لأشكونكما إليه ».

ويخرج الشيخان وهما يحسان بدوار . . وكأن الأرض تميد من تحت أقدامهما . . لقد أغضبا الزهراء . .

ومن ذا يجرؤ أن يغضب الزهراء ! .

وما أكثر أحزان الصديق وهو يسمع من فاطمة ما يسمع . . ويعرف أحزانها ولا يستطيع لها دفعاً . . حتى أنه تمنى لو لم يصبح خليفة . .

فاطمة بنت أحب الناس إليه . .

فاطمة بنت المصطفى . . .

فاطمة بنت من ملأ الوجود نوراً وأملاً وحياة . . غاضبة عليه . . يالأحزان الشيخ . . إنه يقابل جماعة من المسلمين فيقول لهم :

« يبيت كل رجل فيكم معانقاً خليلته . . مسروراً بأهله . . وتتركونى وما أنا فيه . . لا حاجة لى فى بيعتكم . . أقيلونى» . .

إن كلمات فاطمة الزهراء تتداعى إلى ذهنه . . وهى تذكره وابن الخطاب يحدث والدها العظيم . .

- نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول :

«رضا فاطمة من رضاى . . وسخط فاطمة من سخطى . . فمن أحب فاطمة ابنتى فقد أحبنى . . ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى . . ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى» لقد قال الصديق لها :

- نعم سمعناه من رسول الله ﷺ .

فقالت لهما :

- فأنى أشهد الله وملائكته أنكما اسخطتمانى وما أرضيتمانى ولئن لقيت النبى لأشكونكما إليه ! .

قال أبو بكر بحزن :

- أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة .

وامتلأت عيناه بالدموع . .

فاطمة هى الابنة الوحيدة للنبى التى بقيت على قيد الحياة فى حياة النبى ولحقت به بعد ستة أشهر . .

لقد ذهبت فاطمة إلى والدها العظيم فى مرضه فرحب بها . . وأجلسها على يمينه . . ثم همس فى أذنها فبكت . . ثم همس فى أذنها مرة ثانية فضحكت . .

وأتت فاطمة بالحسن والحسين وقالت لوالدها .

- يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئاً .

فقال لها :

« أما الحسن فله هيبتي وسؤددى . . وأما الحسين فان له جراتى وجودى » .

وقد ألحت عليها السيدة عائشة رضى الله عنها لتعرف منها سر بكائها وسر فرحها عندما همس فى أذنها الرسول . . ولكنها لم تجب إلا بعد وفاة والدها عندما سألتها السيدة عائشة للمرة الثانية فقالت لها :

« أما الآن فنعم . . سارنى فى أول الأمر . .

قال لى : أن جبريل كان يعارضنى فى القرآن كل سنة مرة ، وقد عارضنى هذا العام مرتين ، ولا أدرى ذلك إلا لاقتراب أجلى فاتقى الله . واصبرى فنعم السلف أنا لك ، فبكيت . .

ثم سارنى فقال : أما ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين .

وتمر الأيام . . وتمرض فاطمة . . وهى التى عانت فى حياتها ما عانت من شظف العيش . . كما أنها لم تضحك بعد أن فارق والدها العزيز الدنيا . . وفى مرضها الأخير . . تتداعى الصور إلى خيالها . . وما أكثر ما رأت فى بيت النبوة . . مع أمها العظيمة

خديجة ووالدها النبي الكريم.. وأخواتها اللاتي سبقنها إلى دار الخلود .. إنها تتذكر يوماً أراد عليٌّ بن أبي طالب أن يتزوج عليها .. ويتزوج من؟ بدرة بنت أبي جهل .. حزنت يومها حزناً شديداً .. وهي التي صبرت مع زوجها على الفقر .. فماذا به يريد أن يتزوج عليها من بنت أبي جهل..

حزنت .. وما كان أكثر حزن فاطمة الصابرة وحزن والدها لما رأى حزن ابنته العزيزة الغالية .. لقد صعد إلى المنبر .. وخطب الناس فقال:

« لا أحرم حلالاً .. ولا أحل حراماً .. وأن فاطمة بضعة مني.. يريبني مارابها .. ويؤذيني ما آذاها ، وإني لا أخشى أن تفتن عن دينها .. ولكن إن أحب ابن أبيَ طالب أن يطلقها ويتزوج بنت أبي جهل .. فإنه والله لا تجتمع في بيت، بنت نبي الله وبنت عدو اللّه تحت رجل واحد أبداً».

وسمع عليٌّ بن أبي طالب ما قاله النبي .. وشعر بالندم .. واسترضى فاطمة العظيمة وسامحته ..

ها هي على فراش الموت ..

وها هي تتذكر حديث الرسول لها بأنها أول بيته لحاقاً به ..

إنها آذن النهاية .. نهاية المطاف في الدنيا .. وإنها في الطريق

إلى لقاء الأحبة . . والدها العظيم . . وأمها العظيمة . . وأخواتها الكرام . .

ويسمع الصديق بمرضها . . فيذهب إليها . . أنه يريد أن يسترضيها منذ أن وقفت منه هذا الموقف عندما طالبت بأرض فدك ورفض أبو بكر ذلك لأنه سمع من الرسول أن الأنبياء لا يورثون وما يتركونه صدقة . .

ويذهب إليها . . ويطلب من عليٍّ أن يأذن له بالدخول . . ويطلب منها عليٌّ أن تقابل خليفة رسول الله . . وأذنت له . . رآها على فراش المرض فقال لها :

« يا حبيبة رسول الله . . والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله . . ومرضاة رسوله . . ومرضاتكم أهل البيت . .

وظل بها حتى استرضاها . .

وفي يوم الثالث من رمضان في العام الحادى عشر من الهجرة خرجت الروح للقاء بارئها . . ودفنت في البقيع على ضوء المشاعل . .

ووقف الإمام عليٌّ يرثي زوجته الراحلة ·

« السلام عليك يا رسول الله . . عني وعنْ ابنتك النازلة إلى جوارك . . والسريعة اللحاق بك . . قل يا رسول الله عن صفيتك

صبرى . . ورق تجلدى . . إلا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتك . . وفادح مصيبتك . . موضع تعز . . لقد وسدتك فى ملحودة قبرك . . وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك . . إنا للّه وإنا إليه راجعون . . لقد استرجعت الوديعة . . وأخذت الرهينة . . أما حزنى فسرمد . . وأما ليلى فمسهد . . إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم . . وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها . . فأحفها السؤال . . واستحضرها الحال هذا ولم يطل العهد . . ولم يخل منك الذكر . . والسلام عليكما سلام مودع ولا قال ولا سئم . . فان انصرف فلا عن ملامه . . وأن أمم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين ».

وهناك صورة أخرى . .

الصورة تعطى مؤشراً لقلب الصديق الذى يفيض رقة ورحمة وحناناً . .

كما أنها تعطى صورة لهذه الأسرة التى كان يرعاها الصديق . . والتى أنجبت أسماء التى تزوجها الزبير بن العوام وأم الابن العظيم عبدالله الذى قاوم صلف الدولة الأموية فيما بعد . .

وأنجبت عائشة أم المؤمنين . . وأحب نساء النبى إلى قلبه، وأنجبت محمد وعبدالرحمن وعبداللّه . .

ونقف عند إحدى هذه الصور . . صورة ابنه عبداللّه وموقف

والده منه عندما رآه متيماً فى الحب . . وغرق فيه إلى أذنيه . . وأنساه هذا الحب ما كان ينبغي ألا يقصر فيه كإقامته للصلاة والجهاد فى سبيل اللّٰه.

شاهد الصديق ابنه عبدالله . . وقد هام حباً بعاتكة بنت زيد التى استشهد زوجها جعفر بن أبى طالب فى معركة مؤته وأحبها عبداللّٰه وتزوجها . . وكان ولعه بها شديداً فسيطرت عليه بهذا الحب . . وحز فى نفس الصديق أن ابنه عبدالرحمن لبى نداء الجهاد فخرج فى جيش خالد بن الوليد بينما آثر عبدالله العيش بجوار زوجته . . نسى نفسه . . ومعظم وقته يقضيه فى البيت . . وتأثرت تجارته . . وحز فى نفس الصديق أكثر أن ابنه لم يخرج لصلاة الجمعة . . ولم يستمع عبدالله نصح والده بألا يصبح أسير حبه . . وعليه أن يرعى حقوق الله . . ويرعى معاشه . . ويوفق بين حبه وحياته . . ولكن نصائحه ذهبت أدراج الرياح . . وطلب منه أن يطلقها حتى يعرف السير فى الحياة كما كان قبل وقوعه فى حبها . .

وأطاع الولد أباه . . ولكن قلبه كان لا يعرف إلا هذا الحب . . وامتلأ قلبه بالحزن والألم . .

أنه لا يستطيع أن يفارق عاتكة التى جعلت الحياة فى عينيه فردوساً يانعاً . . وجعلت لكل شئ فى حياته طعماً . .

وهو فى نفس الوقت لا يستطيع أن يعصى أوامر والده . .

وبينما كان أبو بكر يصلى على سطح المنزل . . سمع صوت ابنه يشكو أحزانه وحبه . . . فى شعر رائع ومؤثر . . إنه ينشد فى أسى هذه الأبيات :

أعاتك لا أنساك ماذر شارق وما ناح قمرى الحمام المطوق
أعاتك قلبى كل يوم وليلة لديك بما تخفى النفوس معلق
لها خلق جزل ورأى ومنطق وخلق مصون فى حياء ومصدق
فلم أر مثلى طلق اليوم مثلها ولا مثلها فى غير شئ تطلق

لم يطق الصديق أحزان ابنه، فطلب منه أن يعيدها . . وفرح عبدالله فرحاً شديداً وأعتق بهذه المناسبة غلامه أيمن . .

وأسرع إلى زوجته وهو ينشد :

أعاتك قد طلقت فى غير ريبة وروجعت للأمر الذى هو كائن
كذلك أمر الله غاد ورائح على الناس فيه ألفة وتباين
وما زال قلبى للتفرق طائرا وقلبى لما قد قرب اللّه ساكن
ليهنك أنى لا أرى فيك سخطة وأنك قد تمت عليك المحاسن
فإنك ممن زين الله وجهه وليس لوجه زانه الله شائن

ورجعت إلى هذا الشاعر الرقيق زوجته، وشعر بنفسه يحتضن السعادة والهناء . . وكان الجرح الذى أصيب به عبدالله عندما كان

يحارب مع المسلمين هوازن قد عاوده من جديد . . ثم اشتد عليه المرض . . ومات . . وشعرت زوجته عاتكة بحزن عميق لهذا الإنسان الرقيق الذى أحبها كل هذا الحب . . وقد قالت قصيدة فى رثائه منها هذه الأبيات :

فآليت لا تنفك عينى سخينة   عليك ولا ينفك جلدى أغبرا
لدى الدهر ما غنت حمامة أيكة   وما طرد الليل الصباح المنورا

وذهب والده يودعه الوداع الأخير . . وفاضت عيناه بالدمع وهو يوسد عبدالله التراب . . ذلك الشاعر الرقيق الحس . . المرهف الوجدان .

ونرى رقة الصديق حتى فى الحروب مع أعداء الله . . فكانت وصاياه لأسامة بن زيد :

« لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تقطعوا نخلاً ولا تحرقوه . . ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . . وسوف تمرون على قوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وكان يكره الغرور . . فقد كان متواضعاً . . عف النفس . . حتى أنه سار يوماً فى المدينة وعلى كتفيه جلد شاة . . ورأى أقاربه فى هذا المنظر شئ لا يليق بشخصية أبى بكر . . وطلبوا منه ألا يسير بهذا

المنظر، وكان جوابه لهم . . وهو يسمع قائلاً منهم أنه فضحهم بين المهاجرين والأنصار:

– لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد فى هذه الدنيا.

وقد ذهب مرة لزيارة ابنته عائشة . . فرآها تمشى وهى تنظر بإعجاب إلى ذيل ثوبها . . وأبت نفسه أن يرى أم المؤمنين . . وكان يناديها دائماً بهذا اللقب وهى تختال فى ثوبها . . فقال لها:

– أما علمت أن العبد الذى داخله العجب بزينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة .

ولم تجد أم المؤمنين عائشة مفراً أمام رأى والدها إلا بنزع هذا الثوب .

والصديق كان لا يخاف فى الحق لومة لائم . . وكان لا يخشى شيئاً يعلم أنه الحقيقة . . مهما تعرض من أذى . . أو لاقى من تعنت . وهذا يبدوا واضحاً يوم جلس النبى يدعو الناس إلى الإسلام فى أول العهد بالنبوة . . فاذا بالمشركين يتعرضون للرسول بالأذى . . ويحاول أبوبكر حماية النبى . . فيضربه أحد المشركين ضرباً مبرحاً حتى تورم وجهه . . وعندما يفيق يكون أول سؤال له عن أحوال النبى . .

إخلاص ليس بعده إخلاص . . !

بل إن النبى عندما أراد أن يتزوج عائشة . . بلغ من حبه للنبى أن تساءل :

– وهل تصلح له وهى بنت أخيه ! .

لقد اعتبر الأخوة فى الله كأخوة الرحم .

وعلم من السيدة خولة بنت حكيم التى ذهبت إليه لتخطب عائشة أن النبى قال لها :

« أنت أخى فى الإسلام وابنتك تحل لى » .

ومعروف أن أبا بكر تزوج فى الجاهلية زوجتين . .

تزوج قتيلة بنت عبدالعزى . . وأنجبت منه عبدالله وأسماء . .

وتزوج أم رومان بنت عامر وأنجبت منه عبدالرحمن وعائشة . .

وفى الإسلام تزوج أسماء بنت عميس التى أنجب منها محمد بن أبى بكر . .

كما تزوج فى الإسلام أيضاً حبيبة بنت خارجة التى أنجب منها أم كلثوم . . ونحن نعرف الأدوار التى لعبها أبناء الصديق فى الحياة العامة بعد ذلك . . وهم نتاج هذه التربية والبيئة التى عاشوا فى كنفها . .

وقد تكلمنا عن عبدالله وقصته مع عاتكة . . ورأينا فيها الإنسان الشاعر المرهف الحس . .

أم أخته أسماء .. فقصتها وجهادها يثير الإعجاب .. فهي ذات النطاقين .. وهي التي كانت تحمل الزاد للنبي ووالدها وهم يختفيان في الغار في طريقهما إلى الهجرة إلى المدينة، وقد تزوجت الزبير بن العوام .. وأنجبت عبدالله .. ذلك الرجل الذي تصدى للدولة الأموية في عنفوان جبروتها .. ووقف أمام الحجاج بن يوسف الثقفي الذي جاء ليقضي على تمرده على الأمويين .. يومها تخلى عنه أقرب الناس إليه .. وذهب إلى أمه العظيمة يسألها عما يفعله.. وقد أصبح الأمل في الانتصار شيئاً يشبه المستحيل.. وهم يعرضون عليه الأمن والحياة على أن يستسلم ويبايع بني أمية..

ولنقرأ أعظم حوار .. بل أجمل سيمفونية في سمع الزمان .. بين الابن والأم إنه يقول لها:

لم يبق معي إلا اليسير .. ومن لا دفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار .. وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك؟

فما ضعفت من الهول ضعف النساء .. ولا ضعف الأمهات..

قالت له :

- يا ولدي إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه.. فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن رقبتك غلمان بني أمية فيتلعبوا بك.. وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا فعل الأحرار .. ولا فعل من فيه خير..

بكم خلودك فى الدنيا؟!

القتل أحسن ما يقنع به يا ابن الزبير . . والله لضربة بسيف فى عز . . أحب إلى من ضربة بسوط فى ذل.

وأخذت تدعو الله هذا الدعاء الرائع :

« اللهم أرحم طول ذاك النحيب . . والظمأ فى هواجر المدينة . . ومكة وبره بأمه».

اللهم أنى قد سلمت فيه لأمرك . . ورضيت فيه بقضائك . . فأثبنى فى عبدالله ثواب الشاكرين . .

وقال لها عبدالله :

ولكن أخاف أن يمثل القوم بى .

فقالت له :

وهل يضر الشاة سلخها بعد ذبحها ؟!.

يا لجلال الأمومة . . أم بلغت المائة من عمرها . . وترى ابنها فى هذا الموقف الحرج . . وهى توقن من موته بلا محالة . . ولكنه حارب معه من حارب . . وقتل من أتباعه من قتل . . فلا بد أنه كان يحارب عن مبدأ . . وما دام له مبدأ . . فإن الموت سهل . . فليمت على ما مات عليه إخوانه . .

لم تحاول الأم أن تجد مبرزاً لأن يهرب ابنها بجلده من بطش الحجاج، وما أيسر التبريرات.

ولا حاولت أن تثنى ابنهـا عن عزمه . . بل شجـعته لأن يواصل المسيرة إلى النهاية . .

وقتل عبدالله ومثل به . . وصلبوه ورفض الحجاج دفنه . .

وكان يأمل أن تأتى إليه أسماء متوسلة . .

ولكنها لم تذهب إليه . .

وذهب هو إليهـا بكل ما كـان يتمتع به من عـجرفة وقـسوة . . ولكنه أمام شخصيتها لم يستطع أن يستمع إليها وهى تسأله بكل عزة وكرامة :

أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟

وهى تقصد ألم يؤن الأوان لأن يدفن عبدالله .

ورغم وقاحته عندما أجابها :

المنافق . .

ردت عليه بكل كبرياء وجلال . . لم تبك ولم تسترحم :

والله ما كان منافـقاً . . والله ما كان منافقاً . . وقـد كان صواماً قوّاماً . . كان موقفها عظيماً . .

وقد علم الخليفة الأموى عن مـوقف الحجاج فلامه على هذا لأنه خرج عن كل حدودا . .

* * *

ونحن نعرف ابنته عائشة .. أحب نساء النبى إلى قلبه .. والتى كانت عالمة .. فقيهة .. وما أكثر ما أدت إلى الإسلام وقد قالت تضع صورة لنفسها .. وكان النبى عليه الصلاة والسلام قد انتقل إلى رحاب الله.

- فضلت على نساء النبى ﷺ بعشر .. لم ينكح بكراً قط غيرى.. ولا امرأة أبواها مهاجران غيرى .. وأنزل الله براءتى من السماء .. وجاء جبريل بصورتى من السماء على حريرة .. وكنت أغتسل أنا وهو فى إناء واحد .. ولم يكن يصنع ذلك مع نسائه غيرى .. وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه دون غيرى .. وكان ينزل الوحى وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى .. وقبض وهو بين سحرى ونحرى .. وفى الليلة التى كان يدور على فيها .. ودفن فى بيتى .

ولا يمكن أن نذكر السيرة النبوية العطرة إلا وتذكر عائشة بنت أبى بكر .. وأم المؤمنين .. ».

وعائشة قد نشأت فى بيت أبى بكر .. وتأثرت بوالدها الذى كان يحفظ أنساب العرب .. والكثير جداً من الشعر الجاهلى .. وهذا جعلها شخصية متميزة .. وقد تزوج النبى عليه الصلاة والسلام منها بوحى من السماء .: حيث أن النبى رأى فى المنام جبريل يعرض عليه صورة عائشة ويقول له:

« أنها زوجتك فى الدنيا والآخرة ». ,

وقد خطبها النبى وكان عمرها عشر سنوات . . وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات . . ودخل بها النبى فى السنة الأولى من الهجرة . . وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها . . وكان النبى فى الثالثة والخمسين . . وكانت عائشة من أحب نساء النبى إلى قلبه . .

غير أنه فى السنة السادسة للهجرة . . خرجت عائشة مع النبى فى غزوة بنى المصطلق . . وحدث أن خرجت لقضاء حاجتها فى الصحراء . . فانفرط عقدها الثمين . . فأخذت تجمعه . . وعندما عادت إلى معسكر المسلمين . . كان المسلمون قد رحلوا . . وظلت هى فى مكانها لعل المسلمين يعرفون أنهم تركوها فيعودون إليها بعد أن يعرفوا أنها ليست فى هودجها . . وغلبها النعاس فنامت وصادف أن وجدها صفوان بن المعطل السلمى وعرفها . . فأركبها بعيره ليعود بها إلى المدينة . . وقاد هو البعير . . وهذه حادثة عابرة كان يمكن أن تمر . . غير أن رأس المنافقين فى المدينة عبدالله بن أبى بن سلول . . أشاع أن عائشة خانت النبى عليه الصلاة والسلام مع صفوان . . وأخذت هذه الإشاعة البشعة تنتقل بين صفوف الناس حتى وصلت الإشاعة إلى مسامع النبى عليه الصلاة والسلام فآذته . . ومرضت عائشة رضى الله عنها . . وكان النبى عليه الصلاة والسلام موقن من طهارة زوجته حتى أنه خطب الناس فقال :

«يا أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير

الحق . . والله ما علمت منهم إلا خيراً . . ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه إلا خيراً . . وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى ».

ومرت أيام . . وأيام . . قاربت الشهر . . والرسول حزين للافتراء على عائشة . . واستشار علىٌ بن أبى طالب . . وأسامة بن زيد . . فأثنى أسامة عليها . . أما علىٌ فقد قال للنبى عليه الصلاة والسلام:

- يا رسول الله . . النساء كثيرات . . وإنك لقادر على أن تستخلف . . وسل الجارية فانها ستصدقك .

وكانت مع عائشة خادمتها (بريرة) . . وقد طلب علىٌ أن تقول النبى الصدق . . وضربها الإمام علىٌ . . ولكنها كانت تكرر قولها «والله ما أعلم عنها إلا خيراً» .

ويذهب الرسول إليها فى بيت الصديق . . ويراها قد بلغ الحزن منها الكثير فيقول لها الرسول :

« يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله . . وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله . . فان الله يقبل التوبة من عبادة» . .

وسمعت عائشة قول النبى وبكت . . هل يشك فيها رسول الله . . ! فتقول للنبى الكريم:

- والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً . . فلئن قلت لكم إنى

بريئة لا تصدقوني . . ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني . . فوالله لا أجد لي ولكم إلا قول أبي يوسف عليه السلام : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

[يوسف : ١٨]

ونزلت براءة عائشة رضي الله عنها من فوق سبع سماوات . . كم كانت فرحة الصديق ببراءة ابنته . .

وخرج النبي إلى المسجد يتلو قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور: ١١]

إلى أن قال: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النور: ١٦-١٩]

وجاءت بعد ذلك آيات من القرآن الكريم . . تلعن الذين يفترون على الله كذباً :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور: ٢٣-٢٤]

وحتى يقطع الله الشائعات على المؤمنات بلا دليل . . كانت عقوبة حد القذف ثمانين جلدة . . تنفيذاً لقوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور: ٤]

ومرت هذه الحادثة . . وعادت عائشة إلى بيت النبى ولكنها لم تنس للإمام على موقفه منها . . حتى قامت الحرب بينها وبين علىٍّ فى موقعة الجمل التى قتل فيها خمسة عشر ألف قتيل من الطرفين . .

ولحب النبى لها طلب من زوجاته عند مرضه أن يكون فى بيت عائشة . . وقبلت زوجاته بذلك . .

ولم تتدخل عائشة فى السياسة إلا فى أيام حكم عثمان . . وعندما بويع علىٌّ بالخلافة . . أثار حقدها القديم عليه . . وطالبته بدم عثمان ثم خرجت لمقاتلته . . وأرسل لها الإمام رسالة تاريخية يقول لها فيها:

« أما بعد فانك خرجت من بيتك عاصية للّه ورسوله . . أتطلبين أمراً كان عنك موضوعاً . . ثم تزعمين أنك تريدين الإصلاح بين الناس . فخبرينى ما للنساء وقيادة العساكر؟ . .

وزعمت أنك طالبة لدم عثمان . . وعثمان من بنى أمية وأنت امرأة من بنى تيم بن مرة . . ولعمرى أن الذى عرضك للبلاء . .

وحملك على المعصية لأعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان. . وما غضبت حتى أغضب . . وما هجت حتى هيجت . .. فاتقى الله يا عائشة أن تتعظى من هذا الخطاب ».

ولكنها للأسف لم تستطع أن تصغى إلى صوت العقل . . وما زال في فى أعماقها يرن قوله النبى :

– النساء كثيرات . . .

لقد أرسلت لعلىّ رداً على خطابه تقول :

« يا بن أبى طالب . . جل الأمر من العتاب . . ولن ندخل فى طاعتك أبداً . . فاقض ما أنت قاض والسلام ». .

ومعروف أن عائشة كانت تقف معارضة لسياسة عثمان بن عفان. . بل أنها خرجت للحج . . والثوار يملئون المدينة .. ومن هنا فقد كان غريباً أن تخرج للمطالبة بدم عثمان ! .

وهذا يفسر أن سبب خروجها لقتال علىّ هو موقفها العدائى منه منذ حادثة الإفك . . وإن كان هناك بعض المؤرخين الذين يرون أنها كانت أيضاً غاضبة لأن الإمام علىّ لم يبايع أباها إلا بعد عدة شهور من مبايعة الناس . . وبعد أن ماتت السيدة فاطمة الزهراء . .

مهما يكن من شئ . . فقد وقفت عائشة ضد الإمام علىّ . . بل وخرجت محرضة على قتاله مع طلحة والزبير وقتل فى هذه المعركة

أو فى هذه المأساة كما قلنا خمسة عشر ألف، كما قتل طلحة والزبير.. وأمر علىٌّ أن يُعقر جمل عائشة حيث كان أتباعها يستميتون فى الدفاع عنها . .

وانتصر علىٌّ وتقدم إلى هودج أم المؤمنين عائشة وهو يقول والأسى يعتصر قلبه :

- يا حميراء . . رسول الله أمرك بذلك ! .

ألم يأمرك أن تقرى فى بيتك؟

واللّه ما أنصفك الذين أخرجوك إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك .

وكان يحارب بجانب علىٌّ أخوها محمد بن أبى بكر . . فأمره أن يعود بها إلى المدينة آمنة مكرمة . . وأعطاها منحة من المال (١٢ ألف دينار) . .

وندمت السيدة عائشة من موقفها من علىٌّ واعتزلت السياسة طوال حياتها الباقية . . وندمت ندماً شديداً على تورطها فى هذا القتال الذى ذهب ضحيته ألوف الضحايا . .

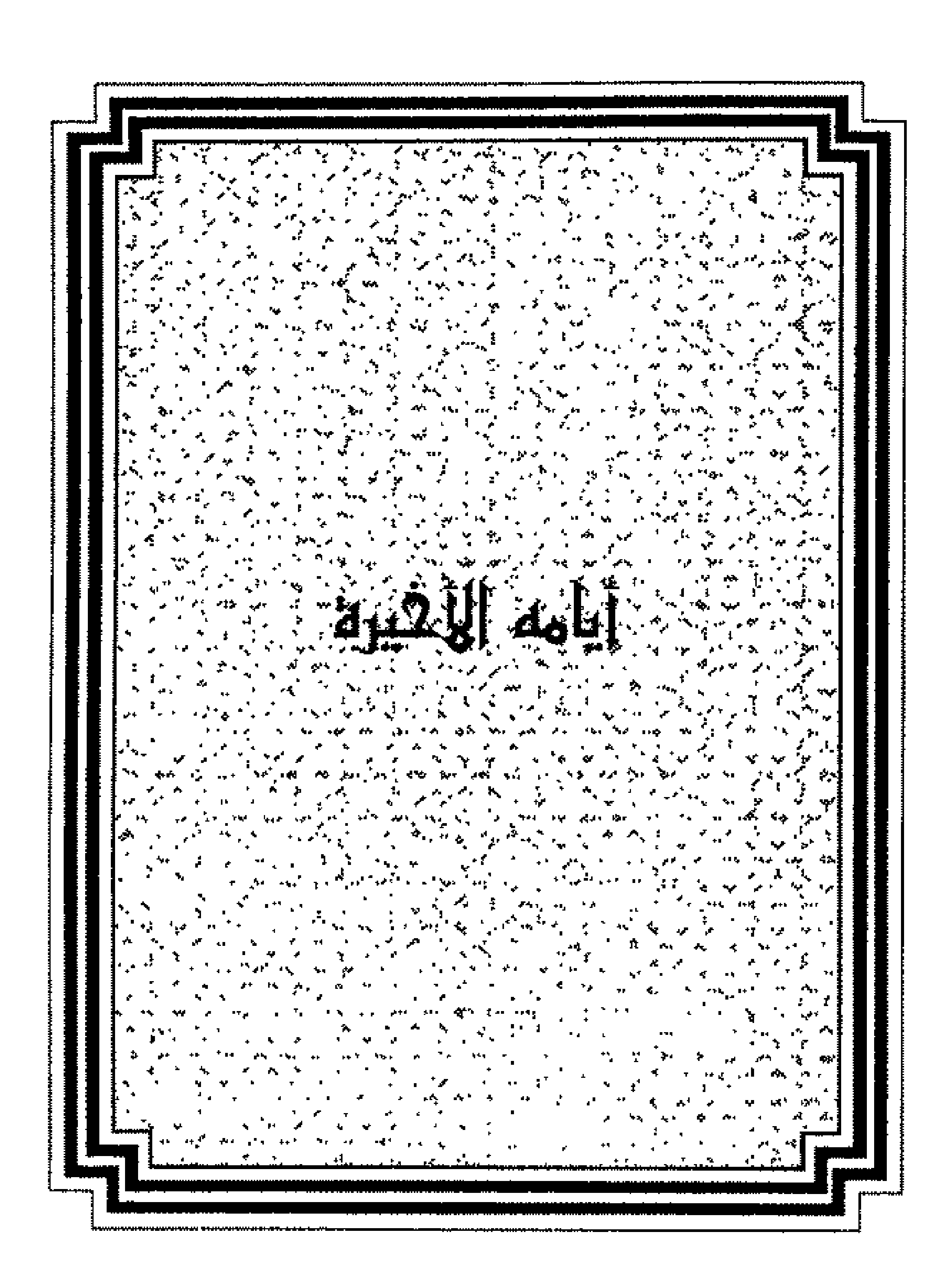
وروى أنه عندما حضرتها الوفاة بكت . . فقالوا لها كيف تبكين وأنت زوجة رسول الله وبنت أبى بكر . . فقالت :

« إن يوم الجمل معترض فى حلقى . . ليتنى كنت نسيا منسيا» .

وماتت السيدة عائشة فى ليلة ١٧ رمضان سنة ٥٨ هـ، ودفنت فى البقيع، قد ناهزت السبعين عاماً من عمرها . .

وقد قضت أيامها بعد معركة الجمل . . متعبدة . . قانتة للّه . . تفتى فى أمور الدين . . إلى أن لحقت بربها بعد هذا العمر الطويل . .

* * *


أيامه الأخيرة

آخر أيام الصديق

مرض أبو بكر عقب الاستحمام . . فارتفعت حرارته . . وزاد عليه المرض يوماً بعد يوم . . فأناب عمر أن يصلى بالناس . .

وفكر أبو بكر فى أمور المسلمين . . وقد شعر أن أيامه فى الحياة أصبحت معدودة .

إن جنود المسلمين فى معارك طاحنة مع الفرس والروم . . وأنه يخشى أن يتنازع المسلمون بعده حول الخلافة . . فتنشب الفتنة فى وقت يحتاج المسلمون فيه أن يقفوا وقفة رجل واحد .

أنه لا ينسىٰ ما حدث بعد وفاة رسول اللّٰه ﷺ والفتنة التى كادت تقوم بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة . . إنه لا يريد أن يتكرر شئ من هذا . . وفكر أن يستخلف عمر بن الخطاب بعده حتى لا يترك مكاناً للفرقة . . أو يدع مجالاً لإحداث ما يبلبل الأفكار . فهو يعرف عمر . . وتقواه وقوته . . وعدله . . وقدرته على إدارة دفة الأمور فى هذه الظروف البالغة القسوة .

لقد أدى هو دوره . .

قضى على الردة . .

وقضى على مانعى الزكاة . .

ودفع بجيوش الإسلام لمحاربة الفرس والروم . . وتغيرت صور الحياة . . فالأموال تتدفق على خزينة الدولة . . والبلاد مقبلة على حالة من الثراء . . وكلمة الله ترتفع فى كل مكان . . ولم يكن هناك فرصة من الوقت لينظم شئون الدولة الإدارية . . فهو لم يقض فى الحكم سوى سنتين وثلاثة أشهر وعشرة ليال.

فكان يسير كما كان يسير رسول الله . . ويقتفى أثره . .

وعندما أشار عليه ابن الخطاب بجمع القرآن . . انشرح له صدره. . وأمر بجمع القرآن . . الذى نسخ فى عصر عثمان . . ووزع فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى.

فترة قصيرة من الزمن حكمها أبو بكر . . وعم من خلالها الإسلام. . وأقام دولة . . ونواة امبراطورية مترامية الأطراف . . ولم يبتدع شيئاً . ولكنه كان متبعاً . . متبعاً لسنة نبيه وحبيبه. .

مرت أيامه بسرعة البرق. .

وكانت أيامه تلك امتداداً لأيام رسول اللّه وها هو على فراش المرض . . ولابد أن يترك المسلمين وهم فى تضامن . . وقوة وإخاء. . فالظروف تحتم ذلك . . كما أنه لا يريد أن يستبد برأيه . . فقد استشار كبار الصحابة ووافقوه على ذلك . . وكانوا يخشون قسوة عمر فقط . .

فعثمان بن عفان الذى كان يعوده دائماً عندما سأله الخليفة رأيه فى عمر قال:

- اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته . . وأنه ليس فينا مثله . .

وقال عبدالرحمن بن عوف:

- هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل . . ولكنه فيه غلظة . .
ورد عليه أبو بكر :

- ذلك لأنه رفيق لو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه ويا أبا محمد قد رفعته فرأيته إذا غضبت على الرجل فالشئ أرانى الرضا عنه . . وإذا لنت له أرانى الشدة عليه . .

وقام أبو بكر فخطب الناس فقال:

- أترضون بمن استخلف عليكم؟ فإنى والله ما آلوت من جهد ولا وليت ذا قرابة وإنى قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا . .

ووافق الناس . .

وطلب أبو بكر عثمان ليكتب وصيته باستخلاف عمر وأملاه:

بسم الله الرحمن الرحيم . . هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين . . أما بعد . .

وأغمى على الخليفة .. فكتب عثمان ..

أما بعد فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً منه .

فقد خشى عثمان أن يموت أبو بكر فيفتن الناس ..

وعندما أفاق أبو بكر .. وأراد أن يكمل قرأ له عثمان ما كتب .. وسمع أبو بكر ذلك فقال له :

- جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله .

وأقر أبو بكر هذه الوصية .. وأخذ مولى أبو بكر (شديد) بالصحيفة وأعطاها لعمر .. وكان جالساً فى المسجد .. وصاح شديد .. وقرأ على الناس ترشيح أبى بكر لعمر ..

وفى اليوم التالى دخل عليه عبدالرحمن بن عوف .. فرأى على الخليفة الزاهد سمات الحزن فقال له عبدالرحمن :

- أصبحت والحمد لله بارئاً ..

ورد الصديق :

- إنى وليت أمركم خيركم فى نفسى .. فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون له الأمر من دونه .. ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولم تقبل .. وهى مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير .. ونضائد الديباج .. وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذربى (القادم من

أذربيجان) كما ينام أحدكم أن ينام على جسده .

والله لأن يقوم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد . . خير له أن يخوض فى غمرة الدنيا . . وأنتم أول ضال بالناس غداً . . فتصدونهم عن الطرق يميناً وشمالاً . . يا هادى الطريق إنما هو الفجر أو البحر . .

ويطلب أبو بكر أن يعود ما أخذه من بيت المال إلى بيت المال أن يعود ثمانية آلاف درهم إلى بيت المال . . وتم ما أراده الخليفة . .

وكان آخر شئ أقره أو آخر قرار سياسى أقره . . عندما قدم إليه المثنى بن حارثة الشيبانى يطلب عوناً لمحاربة جيوش الروم فى العراق . . وخاصة بعد أن ترك خالد العراق وأخذ معه نصف الجيش . . لقد أوصى الصديق عمر بن الخطاب . . بتحقيق ما يطلبه المثنى بن حارثة . .

فقد قال لعمر :

« اسمع يا عمر ما أقول لك ثم أعمل به . . أنى لأرجو أن أموت من يومى هذا فإن أنا مت فلا تمشين حتى تندب الناس مع المثنى وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى . . لا تسينكم مصيبة وإن عظمت على آمر دينكم ووصية ربكم وقد أربتنى متوفى رسول الله ﷺ وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله ، وبالله ان أنى عن آمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً . . وإن فتح الله على أمراء الشام فأردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم

أهله . . وولاة أمره وحده . . وأهل الضراوة والجراءة عليهم .

وأوصى أبو بكر زوجته اسماء بنت عميس أن تغسله . . وعندما قالت له أنها لا تطيق ذلك . . أمرها أن يساعدها عبدالرحمن بن أبى بكر بصب الماء . . ثم أوصى أن يكفن فى ثوبين قديمين، وعندما أشارت إليه ابنته عائشة أن يكفن فى ثوب جديد قال لها :

– إن الحى أحوج إلى الجديد من الميت، وإنما الكفن للصديد والتراب . .

ورأت عائشة أن والدها يعانى سكرات الموت فأنشدت تقول :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

وسمع أبو بكر كلام ابنته فظهر الغضب على وجهه وقال لها :

– بخ بخ يا أم المؤمنين . . هل تلوت قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾

[ق :١٩]

وأنشد يقول بصوت هامس :

وكل ذى ابل موروث

وكل ذى مسلب مسلوب

وكل ذى غيبة يئوب

وغائب الموت لا يئوب

وأوصى بنته عائشة أن يدفن بجوار النبى عليه الصلاة والسلام.

وقد حمل الصديق على نفس السرير الذى حمل عليه رسول اللّه ﷺ .. وحفر له .. ووضع رأسه عند كتف الرسول ﷺ.

وقد رثاه الإمام علىّ كرم اللّه وجهه فقال:

- رحمك اللّه يا أبا بكر .. كنت أول الناس إسلاماً وأخلصهم إيماناً .. وأشدهم نحيباً وأقربهم إلى رسول اللّه وأشبههم خلقا وخلقاً وهدياً وسمتاً ..

صدقت رسول اللّه حين كذبه الناس ..

وواسيته حين بخلوا ..

كنت كما قال الرسول فى حقك:

ضعيفاً فى بدنك .. قوياً فى دينك .. متواضعاً فى نفسك .. فلا حرمنا اللّه أجرك ولا أضلنا بعدك ..

وعلى قبره الطاهر .. وفى هذا المكان المقدس .. حيث يرقد سيد البشر محمد بن عبداللّه ، وبجواره الصديق .. وقفت عائشة أم المؤمنين ترثى والدها الراقد بجانب زوجها الكريم فقالت:

« نضر اللّه وجهك وشكر لك صالح سعيك .. فلقد كنت للدنيا مذلاً بإعراضك عنها وللآخرة معزاً بإقبالك عليها .. ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول اللّه رزؤك .. وأعظم المصائب بعده فقدك .. إن

كتاب الله ليعد بالعزاء عنك حسن العوض منك . . فأنا أختبر من الله موعودة فيك بالصبر عليك . . واستعيضك منك بالدعاء لك . . فإنا للّه وإنا إليه راجعون . . وعليك السلام ورحمة اللّه غير قالية لحياتك . . ولا زارية على القضاء فيك . .

و . . انتهت خلافة أبو بكر . .

ماذا كانت نظرته إلى الحياة وهو يدبر عنها مقبل على وجه اللّه؟

إنه يقول لعبد الرحمن بن عوف وهو يزوره فى مرضه الأخير :

أنى لآسى على شئ من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن وودت أنى أتركهن . . وثلاث تركتهن وودت أنى أفعلهن وثلاث وددت أنى سألت عنهن رسول اللّه ﷺ . . فأما الثلاث اللاتى تركتهن فوددت أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شئ . . وإن كانوا أغلقوه على الحرب . . وودت أنى لم أكن حرقت الفجاءة السلمى وإنى كنت سريحاً أو خليته خصماً . . وودت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة قدمت الأمر فى عنق أحد الرجلين فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً .

وأما اللاتى تركتهن فوددت أنى يوم أوتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه فإنه تخيل إلى أنه لا نرى بشراً إلا أعان عليه وودت أنى حين سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة كنت أقمت بذى القصة فإن ظفر المسلمون ظفروا وإن هزموا كنت بصدد ولقاء أو مدوا . . وودت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق قد بسطت يدى كلتيهما فى

سبيل الله . . ووددت أني كنت سألت رسول الله ﷺ هل للأنصار في هذا الأمر نصيب؟ ووددت أني كنت سألته عن ميراث ابن الأخ والعمة فإن في نفسي منهما شيئاً . .

انتهت خلافة الصديق . .

وجاء عمر بن الخطاب الذي استهل حكمه . . بعد أن بايعه الناس بأن صعد المنبر وقال :

- أيها الناس . . ما أنا إلا رجل منكم . . ولولا أني كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم . .

وطلب العون من الله . . وهو يتجه إليه بكل كيانه . .

اللهم إني غليظ . . فليّني . .

اللهم إني ضعيف . . فقوني . .

اللهم إني بخيل . . فسخّني . .

إن الله ابتلاكم وابتلاني بكم . . وأبقاني فيكم بعد صاحبي . . فوالله لا يضرني شئ من أمركم فيليه أحد دوني . . ولا يتغيب عني فآلوا فيه عن الجزاء والأمانة . . ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم . . ولأن أساءوا لأنكلن بهم . .

وبدأت خلافة عمر . . بفتوحاته الرائعة . . وعدله الذي فاق كل مناسيب ما عرف عن العدالة . .

وبعد . .

فإن أيام الصديق رغم قلتها قدمت للإسلام الكثير . . وكانت صورة لأيام رسول الله . . تفيض عيناه بالدمع عندما يتلو أو يسمع كلام اللَّه . . يتحدث فيوجز فى الحديث . . ويكون لكلامه وقع . . يخاف اللَّه . . ولا يخشى الناس . .

إذا امتدحه أحد كان يقول:

« اللهم أنت أعلم بى من نفسى . . وأنا أعلم بنفسى منهم . . اللهم اجعلهم خيراً مما يظنون . . وأغفر لى ما لا يعلمون . . ولا تؤاخذنى بما يقولون» . .

وهو القائل من كلماته الجامعة:

* احرص على الموت توهب لك الحياة.

* الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله .

* إذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً.

و . . لا أجد ما أختم به تلك الدراسة المتواضعة عن هذا الرجل العظيم . . إلا ثناء اللَّه سبحانه وتعالى عليه عندما قال:

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]

رضى الله عنه وأرضاه

* * *

المــراجع

* القرآن الكريم .
* صحيح البخارى .
* تاريخ الرسل والملوك — لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى
* السيرة النبوية — لابن هشام
* إحياء علوم الدين — الإمام الغزالى
* سراج الملوك — الطرطوشى
* إنسان العيون (السيرة الحلبية) — على برهان الدين الحلبى
* تاريخ عبدالرحمن بن خلدون
* شرح نهج البلاغة — ابن أبى الحديد
* إتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء — محمد الخضرى
* فاطمة الزهراء والفاطميون — لعباس العقاد
* الصديقة بنت الصديق — لعباس العقاد
* عبقرية الصديق — لعباس العقاد
* محمد والذين معه — لعبد الحميد جوده السحار
* السقيفة والخلافة — عبدالفتاح عبدالمقصود
* الفتوحات العربية الكبرى — تأليف جون باجوت جلوب، ترجمة خيرى حماد

* إسلاميات	خالد محمد خالد
* الشيخان	الدكتور طه حسين
* المرأة فى مجتمع الأنبياء	المهندس أحمد الجبالى
* نساء فى حياة الأنبياء	مأمون غريب

الفهــرس

الموضوع	الصفحة

سلسلة الخلفاء الراشدين

* خلافة الصديق.
* خلافة عمر بن الخطاب.
* خلافة عثمان بن عفان.
* خلافة عليّ بن أبى طالب.

رقم الإيداع
٩٧/١٥٠٦٨
I.S.B.N.
977 - 294 - 048 - 5

طبع آمون
٤ عطفة فيروز - متفرع من ش إسماعيل أباظة - لاظوغلى
تليفون: ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦

